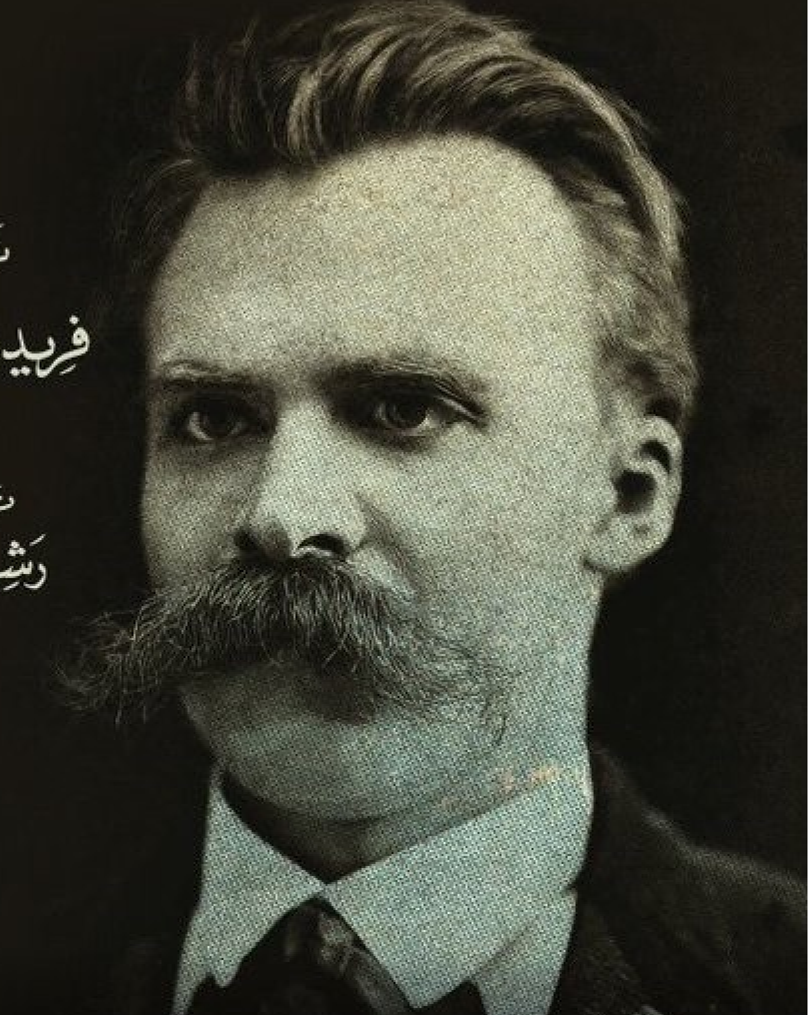
محاسن التاريخ ومساوئه



تأليف

فريدريش نيتشه

ترجمة

رشيد بوطيب

منتدى العلاقات العربية والدولية

محاسن التاريخ ومساوئه

بسم الله الرحمن الرحيم

محاسن التاريخ ومساوئه

تأليف

فريدريش نيتشه

ترجمة

رشيد بو طيب

منتدى العلاقات العربية والدولية

الفهرسة أثناء النشر- إعداد منتدى العلاقات العربية والدولية

نيتشة، فريدريش

محاسن التاريخ ومساوئه / تأليف فريدريش نيتشه ؛ ترجمة رشيد بو طيب.

96 ص. ؛ 21.5 سم.

ISBN 978-9927-126-63-5

1. التاريخ – فلسفة. 2. التاريخ – تعليم وتدريس. أ. بو طيب، رشيد. ب.العنوان.

901

Friedrich Nietzsche: *Vom Nutzen und Nachtheil der Historie für das Leben*
In: *Unzeitgemässe Betrachtungen. Zweites Stück*, 1874.

الطبعة الأولى

منتدى العلاقات العربية والدولية

الدوحة- قطر 2019م

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية: 59 / 2019م

منتدى العلاقات العربية والدولية

هاتف: 44080451 974+ فاكس: 44080470 974+ صندوق بريد: 12231

الموقع الإلكتروني: fairforum.org البريد الإلكتروني: info@fairforum.org

العنوان: مبنى رقم 28، المؤسسة العامة للحي الثقافي (كتارا)، الدوحة، قطر

مقدمة المترجم

يمثل كتاب **محاسن التاريخ ومساوئه** -الذي صدر أول مرة عام 1874- الاعتبار الثاني في كتاب نيتشه: **اعتبارات في غير أوانها**. ويعدّ من أهم كتب مرحلة الشباب، رغم أنه لم يحقق نجاحًا يذكر في حياة نيتشه، بل إن عدد مبيعاته لم يتجاوز (700) نسخة[1]. كما أن هذا الاعتبار الثاني يختلف عن الاعتبارات الثلاثة الأخرى؛ لأنها كلها تتعلق بشخصيات ثقافية معروفة (شتراوس، شوبنهاور، فاغنر)، في حين أن الاعتبار الثاني يتعلق بالتاريخ وعلاقتنا بالزمن، وبلغة أخرى بالمكانة التي يتوجب أن يتخذها الماضي تجاه الحاضر، هذا الحاضر الذي يفهمه نيتشه كمبادرة للانفتاح على المستقبل.

كان نيتشه لحظة انشغاله بتأليف هذا الاعتبار الثاني منهمكًا أيضًا في قراءة غوته، الذي سيستشهد به في كتابه أكثر من مرة، وبقراءة مراسلات شيلر وغوته، وبحثه الموسوم بـ"ما الغاية من دراسة التاريخ الكوني؟" أيضًا. كما أنه قرأ أجزاءً من محاضرات هيغل حول فلسفة التاريخ، وعرفت بعض أفكار محاضرات المؤرخ السويسري ياكوب بوركهاردت طريقها أيضًا إلى هذا الكتاب.

---

1 William H. Schaberg, *Nietzsches Werke: Eine Publikationsgeschichte und kommentierte Bibliographie*, 2002, 278.

وسيجد كتاب نيتشه هذا صدىً في كتاباته اللاحقة، كما أنه سيحظى بأهمية كبيرة في الدراسات النيتشِيَّة؛ إذ سيرى عدد من الباحثين أنه يمثل توطئة فكرية لكتابه **جينالوجيا الأخلاق**. لكن تتوجب الإشارة منذ البداية إلى أن نيتشه يقارب موضوعه هنا من جوانب متعددة، فهو حين يتناول إمكانيات علم التاريخ يقارب أيضًا موضوعاتٍ لها علاقة بفلسفة التاريخ ونظرية العلوم، وحين يربط بين التاريخ والحياة الإنسانية فهو يمارس أيضًا نوعًا من الأنثروبولوجيا. وقد نقول منذ البداية إن التاريخ يمثل لدى نيتشه ضرورة، وفي الآن نفسه عقبة. إن نيتشه يعتبر أن المجتمع الألماني يعاني من مرض التاريخ، معتبرًا أن الحضور الطاغي للتاريخ يُضِرّ بالحياة، ويُضعف الشخصية الفردية والجماعية، ويؤسس وهم العدالة عبر القول بالموضوعية التاريخية. ولربّما هنا تكمن أهمية رؤية نيتشه للتاريخ لدى الفكر العربي المعاصر، والذي لم يَطرَح بعد، أو ما برح يُمعن في كبت السؤال عن أهمية التراث للحياة. ولكن حين نعود إلى نيتشه سنكتشف أنه ينتقد النظر إلى التاريخ باعتباره معرفة موضوعية؛ لأنه برأيه سيصبح بذلك في قبضة الميتافيزيقا، لهذا يطلب تجاوز هذه المعرفة الموضوعية إلى معرفة منظورية تؤسس ذاكرة مضادة لهذه الذاكرة باعتبارها هويةً وتكلسًا للفكر، أو حتى خروجًا من الحياة أو تضحيةً بها. إنه يطلب بذلك تجاوز نموذج العلم كما أسسه سقراط، والذي يجعل الحياة تابعةً للعقل، كما أوضح دولوز (Gilles Deleuze)[1]. وفي السياق نفسه سيعتبر أن الإفراط في التاريخ يضر بالحياة وبالحاضر، ولهذا يمكن اعتبار تأملاته النقدية حول التاريخ دعوة إلى إعادة اكتشاف ملكة النسيان باعتبارها ضرورية للفرد والشعب والثقافة؛ لأنها تساعد على تحرير الحاضر من وطأة الماضي، وتحرير الحياة من هيمنة الذاكرة.

---

1 جيل دولوز، نيتشه والفلسفة، ص 95.

يميز نيتشه في كتابه بين ثلاثة أنواع من التاريخ: التاريخ الأثري والعادياتي والنقدي، فالأثري والعادياتي يؤكدان الاستعمال الإيجابي والمنتج للتاريخ فيما يتعلّق بالحياة، فهما يقدّران ويقدّسان التاريخ معتبرَينِ أنه يمنح الناس الشجاعة والقدرة على المقاومة، وعلى النقيض منهما لا ينظر التاريخ النقدي إلى الماضي باعتباره أمرًا إيجابيًّا، بل باعتباره أمرًا سلبيًّا ومدمرًا. ففي الوقت الذي يستخلص فيه التاريخ الأثري من الماضي أبطاله الكبار المنتصرين والمغامرين، معتبرًا إياهم مصدر إلهام للحياة، وفي الوقت الذي يُحوِّل التاريخ العادياتي الماضي إلى مصدرٍ للهوية وشدٍّ لحمة الجماعة، فإن التاريخ النقدي لا يرى للماضي أيَّ خدمةٍ يمكن أن يقدمها للحياة؛ ولهذا يعمد إلى تدميره. إن التاريخ النقدي يسمح لنا بالتحرر من ثقل الماضي خصوصًا أمام خطر أن ينتهي التاريخان الأثري والعادياتي -في حال إساءة استعمالهما- إلى نوعٍ من الجمود. إنه -كما كتب بول ريكور معلقًا-: "يعيِّن لحظة النسيان المستحق"[1].

سيتحدث نيتشه أيضًا -علاوة على تقسيمه الثلاثي لكل دراسة للتاريخ- عمّا يسميه اللاتاريخي، والفوق تاريخي، وكلاهما يمثّل -كما أوضح بول ريكور- العلاج الطبيعي المضاد لغزو الحياة من طرف التاريخ، أو لما يسميه نيتشه "مرض التاريخ"[2].

يعدّ نيتشه مفهوم "اللاتاريخي" البُعد الأكثر أهمية في سياق سؤال التاريخ؛ فهذا المفهوم الذي اعتبره ريكور "مُلغزًا" هو في الواقع نقطة انطلاق كل تحليل للتاريخ لدى نيتشه، ويتوجب -في رأيه- أن يكون الفرضية التي تنطلق منها كل دراسة تاريخية. فهو يوضّح أن "اللاتاريخي" لا يمثل قاعدة أفعال مختلف الفاعلين في

---

1 Paul Ricoeur, *La mémoire, l'histoire, l'oubli*, Seuil 2000, 381.

2 المرجع نفسه، ص 384.

التاريخ فقط، بل هو كذلك أيضًا لدى المؤرخين وأولئك الذين سيقرؤون التاريخ ويتوجب عليهم الانخراط فيه.

لقد ظلّ نيتشه يؤكد ضرورة تقويم كل فكرة -نظرية أو نظام... إلخ- بالنظر إلى أهميته للحياة، وهذا ما جعله يعتبر -مثلاً- أن مشكلة فلسفة التاريخ الهيغلية تكمن في أنها ترى أن التاريخ -لكي يصبح علمًا- يتوجب عليه أن يقصي الحياة العضوية، بل إنه لم يتورّع عن اعتبار الهيغلية باثولوجيا[1] يصعب علاجها، مُنافحًا عن غوته ضد هيغل، ومعتبرًا غوته في إنساني مفرط في إنسانيته مجرد حادثٍ في التاريخ الثقافي الألماني، وأن الألمان هيغليون وهيغليون فقط! فهيغل -كما نعرف- ظلّ يؤكد أن التقدم في التاريخ هبة الروح، في حين أن الحياة العضوية ليست أكثر من محافظة وتكرار، في حين يرفض نيتشه هذا الفصل بين الروح والحياة، كما يرفض الفصل بين الجسد والروح الذي أبعد العلم عن الحياة نفسها. إن نيتشه يقف لذلك على النقيض من التقليد السقراطي الذي يخترقه الوهم القائل بإمكان علاج الوجود بالمعرفة.

إن هيغل -في مقدمة **فلسفة التاريخ**- سيطبّق استنتاجاته الفلسفية على التاريخ، ففي رأيه من أجل فهم مجرى التاريخ وهدفه وجوهره يتوجب أن نمتلك نظرة فلسفية، وليس الاكتفاء باعتبار التاريخ مجرد أحداث يتوجب سردها كما عشناها، فهي منهجية لن تتمكن -في رأيه- من الإمساك بروح هذا التاريخ. فما تحمله الفلسفة للتاريخ هو مفهوم العقل، أو واقع أن العقلَ جوهرُ كل واقعٍ، إنه مبدأ التاريخ ذاته. إن هذا العقل الذي يعبر عن نفسه في التاريخ أو هذه الروح هي في جوهرها حرية، وما التاريخ سوى تمظهر لهذه الحرية، أو تقدّمٌ في وعي هذه الحرية. لكن نيتشه في رفضه هذا الانفلات من مرحلة الطبيعة إلى مرحلة العقل، وفي دعوته إلى تحويل الطبيعة إلى طبيعة جديدة يهاجم أيضًا فكرة التقدّم وفكرة المعرفة، أو هذه الفكرة

---

1 الباثولوجيا: حالة مرضية.

التي تُعلي من شأن المعرفة على حساب الحياة. إن الحاضر هو المختبر الذي يُصنع فيه التاريخ، فنيتشه لا يدعونا إلى الخروج من التاريخ، وإنما إلى الخروج عليه[1] -إن صحّ هذا التعبير- من أجل بناء ثقافة جديدة، وهو عبر ذلك لا ريب يعيد إلى الإنسان إرادته، ويحرره من قدرية أو ثيولوجيا تاريخية على الطريقة الهيغلية، وهو ما يفسر تأكيده ملكة النسيان وضرورتها، والتاريخ النضالي ضد المنهجية الوضعية[2].

لا يقدم نيتشه -عبر اعتباره هذا- ردًّا على فلسفة التاريخ الهيغلية فحسب، ولكن يتحدى في الآن نفسه الثقافة التاريخية السائدة في عصره؛ إذ في الوقت الذي ألّف فيه كتابه كانت ألمانيا رائدةً في مجال الدراسات التاريخية ومناهج كتابة التاريخ، بل إنها أسست بذلك علمًا جديدًا في الفكر الأوروبي، سواءً أتعلق الأمر بإنجازات ما سمي المدرسة البروسية (ترايتشكه، دويزن، زيبل)، أم تعلّق بازدهار التاريخ القديم والكنسي والثقافي مع بوركهاردت، وفون دولينغر، وومزن[3].

ستنتقد المدرسة التاريخية الألمانية هيغل والتأويلية الرومانسية، فهي من جهة تطلب التخلي عن فكرة وجود غاية نهائية للتاريخ، وإعادة الاعتبار للأحداث التاريخية مؤكدةً أن لكل حقبة معنىً خاصًّا بها، دون أن تكون مجرد مرحلة لتمظهر الفكرة في التاريخ. ومن جهة ثانية فإن اكتمال المعنى هذا لا يتحقق فوق التاريخ،

---

1 إن التوصيف الذي أطلقه على اعتباراتها الأربعة، ومنها الاعتبار حول التاريخ، وأعني "في غير أوانه" لا يعني البتة تبني موقفٍ غير تاريخي، بل العكس هو الصحيح، فنيتشه يطلب الانخراط في التاريخ، وما يرفضه هو التنظير الفلسفي الذي يعطل الزمنية. فالتاريخ يعاني من الضعف في نظر نيتشه، ليس لأنه قليل الموضوعية والعلمية، بل لأنه يبالغ في العلمية، وهو يتأسس على أفكار مجردة، ففي نظره يتوجب على التاريخ أن يستهدف الحياة.

2 Andler, *Nietzsche, sa vie et sa pensée*, II, 184.

3 Charles R. Bambach, *History and Ontology, A reading of Nietzsche's second "Untimely Meditation"*, *Philosophy Today*, Fall 1990, 260.

وليس مجرد نتاج لعبقرية فردية، بل هو معنى عقلاني يتجاوز الأفراد ويكوّن الواقع التاريخيّ.

وفي الواقع فإننا نجد أنفسنا مع نيتشه أمام إشكاليتين مختلفتين، أولاً: تلك المتعلقة بمهنة المؤرخ: إنه يقدم طريقة إيجابية لصناعة التاريخ عبر أشكاله الثلاثة: الأثري والعادياتي والنقدي. فهو تاريخ مُوجّه إلى الرجال الأقوياء من أجل دعمهم بأمثلة نموذجية من الماضي، وهو ثانيًا تاريخ يعتمد تحليلاً للأصول، من شأنه أن يساعد على المحافظة على قيم الشعب، وهو ثالثًا تاريخ نقدي سيحكم على الماضي ويُحاكمه مُقترحًا قيمًا جديدة. أمّا الإشكالية الثانية فهي تلك المتعلقة بتأثير التاريخ في تربية الأجيال الجديدة، فهو ينافح في هذا السياق عن استعمالٍ متوازنٍ للتاريخ حتى لا يطغى على الحياة، وهو هنا يتكلم عن الحياة مثل "المهنة التي يتوجب تعلمها"، وكأني به يُردِّد ما كتبه غوته في **فاوست** من أن شجرة الحياة خضراء، أما النظرية فرمادية!

وفي نهاية هذه المقدمة لا يسعني إلا أن أتوجّه بجزيل الشكر للدكتور محمد حامد الأحمري، الذي وجّهني إلى ترجمة هذا العمل الحاسم، وإلى الدكتور وليد حمارنة الذي تكرم بمراجعة الكتاب، واقترح مفردات عربيّة أكثر دقة لبعض مفاهيم نيتشه، وبفضل مراجعته تمكنت من تفادي أخطاء كثيرة.

فرانكفورت

21 يوليو 2018

مقدمة

"أكره كل ما لا يفعل أكثر من حشوي بالمعلومات دون أن يرفع من نشاطي أو يحييني بشكل مباشر". نبدأ من هذه الكلمات لغوته -والتي نعدّها رأيًا نابعًا من القلب- تأمُّلَنا حول قيمة التاريخ ولا قيمته؛ إذ يتوجب أن نتعرض للسؤال: لماذا التعليم بدون دفقة حياة، والعلم الذي تنام عنده الفاعليّة، والتاريخ فائض المعرفة الغالي، هذا البذخ، لماذا يتوجب أن نكره كل ذلك بالفعل كما يقول غوته؟ لأننا ما زلنا في حاجة إلى الضروري، ولأن الفائض عدو الضروري. طبعًا إننا نحتاج إلى التاريخ، لكننا نحتاج إليه بشكل مختلف عن المتسكع الخامل في حديقة العلم، وذلك بغض النظر عن الاحتقار الذي ينظر به من عليائه إلى ضروراتنا وحاجاتنا الفظّة والقبيحة. إن هذا يعني أننا نحتاج إلى التاريخ للحياة والعمل، وليس لكي نولي ظهرنا -في ارتياح- لهما، أو لكي نزيّن الحياة الأنانية والفعل الجبان والسيّئ. فنحن نريد أن نخدم التاريخ بقدر ما يخدم التاريخ الحياة. لكن هناك طريقة لممارسة التاريخ وتقويمه تدفع بالحياة إلى الجفاف والانحطاط، إنها ظاهرة يتوجب -وإن كان الأمر مؤلمًا- معرفتها عبر دراسة الأعراض الخاصة بزمننا.

لقد سعيت لتوضيح إحساس لطالما عذبني، وإنني أنتقم من هذا الإحساس عبر عرضه على الرأي العام، لربما يوجد شخص سيدفعه هذا الوصف إلى أن يوضّح

لي أنه يعرف هذا الإحساس، وأني لا أحسه بما فيه الكفاية بشكل محض وأصليّ، وبشكل لم أستطع أن أعبّر عنه بالدقة ونضج التجربة المناسبين. هذا ما سيقوله لربّما بعضهم، لكن الأغلبية ستقول لي إن الأمر يتعلق بإحساس خاطئ بالمطلق، بغيض، وغير طبيعي، وبكل بساطة غير مسموح به، وإنني عبر ذلك أبنت عن سخافتي تجاه التيار التاريخي القوي الذي ظهر إلى الوجود -كما نعرف ذلك- قبل جيلين في ألمانيا. ولكني -عبر إقدامي على وصف طبيعي لإحساسي- سأدعم أكثر مما أضرّ التقاليد الكونية؛ لأنني عبر ذلك أقدم الفرصة لكثير من الناس من أجل تعظيم ذلك التيار، لكن فيما يتعلق بي فإني سأربح شيئًا هو لديّ أكثر قيمة من تلك التقاليد، وهو أن أكون عارفًا ومُطّلعًا على موضوع زمننا.

في غير أوانه هذا الاعتبار أيضًا؛ لأني أحاول أن أفهم شيئًا يفتخر به زمننا عن حق، وأعني ثقافتنا التاريخية، أن أفهمه مثل شر مستطير، مرض أو نقص في عصرنا، بل لأني أعتقد بأننا جميعًا نعاني من حُمّى تاريخية مُهلكة، وأن علينا -على الأقل- أن ندرك أننا نعاني من ذلك. لقد قال غوته مُحقًّا بأنه في الوقت نفسه الذي نزرع فيه فضائلنا نزرع خطايانا، والكل يعرف أن فضيلة متضخمة -وأعتقد أن المعنى التاريخي لعصرنا هو كذلك- يمكنها أن تجلب معها انهيار شعب، شأنها في ذلك شأن خطيئة متضخمة، دعوني إذن أقوم بذلك ولو لمرة واحدة. كما أنه يتوجب علي -تبرئةً لذمتي- ألا أصمت عن تأكيد أن التجارب التي تسببت لي بتلك المشاعر المؤلمة أغلبها ينبع مني، وأني لم أستقِ تجارب الآخرين إلا بهدف الموازنة. وباعتباري تلميذًا لهذه العصور القديمة -وبوجه خاص للعصر اليوناني- فقد تعلمت -عن نفسي، وكطفل لهذا الزمن الراهن- التجارب التي أطلق عليها صفة: في غير أوانها. هذا أقل تنازل يمكنني أن أقوم به لنفسي كفقيه لغة كلاسيكي؛ لأني -بخلاف ذلك- لن أعرف أي معنى يمكن للفيلولوجيا الكلاسيكية أن تتخذه في أيامنا، إن لم يكن ذلك الذي يكمن في تأثيرها غير الراهن، بمعنى أن تعمل ضد الزمن، وعبر ذلك أن تعمل عليه، ونأمل أيضًا أن تعمل لمصلحة الزمن القادم.

1

تأمَّل القطيع الذي يرتع بالقرب منك. إنه لا يعرف ما الأمس ولا اليوم، يثب هنا وهناك، يلتهم العشب، يخلد إلى الراحة، يهضم ما مضغه، ويعاود الوثب، وهكذا من الصباح حتى الليل، يومًا بعد يوم، وكيفما كانت لذته وكان سأمه ففي ارتباطه بوتد اللحظة لن تجده مكتئبًا ولا سَئِمًا. إن رؤية ذلك تؤثر بشدة في الإنسان؛ لأنه من جهة يتباهى بإنسانيته تجاه الحيوان، ولكنه في الآن نفسه ينظر إلى سعادة هذا الحيوان في غيرة؛ لأن ذلك ما يريده أيضًا: ألا يشعر -شأن الحيوان- بالسأم ولا بالألم، لكن عبثًا يريد ذلك؛ لأنه لا يريده بطريقة الحيوان. يومًا ما سيسأل الإنسان الحيوانَ قائلاً: لماذا لا تحدثني عن سعادتك وتكتفي بالتحديق فيّ؟ سيرغب الحيوان في الجواب والقول إن للأمر علاقةً بنسيانه الدائم ما يريد قوله، لينسى أيضًا هذا الجواب ويخلد إلى الصمت، ما سيجعل الإنسان يندهش لأمره.

لكن الإنسان سيندهش لأمر نفسه أيضًا؛ لأنه لم يتمكن من تعلّم النسيان، ولأنه يظل متشبثًا باستمرار بالماضي، فسواءٌ أركض بعيدًا أم مشى مسرعًا؛ لأن القيد يمشي معه. إنها أعجوبة اللحظة هنا، وفي غمضة عين تختفي، قبلها عدمٌ، وبعدها العدم، ولكنها تعود مثل شبح لتقلق راحة اللحظة القادمة. وبلا توقف تنفك صفحة من شريط الزمن، تسقط أرضًا لتحملها الرياح إلى مكان أبعد، قبل أن تعود فجأة لتحطَّ فوق حضن الإنسان. حينها يقول الإنسان: " إنني أتذكر"، وهو يشعر بالغيرة من الحيوان الذي ينسى بسرعة، والذي يرى كل لحظة تموت بالفعل لتغرق في السديم والليل، وتتبخَّر مرةً، وإلى الأبد. وهكذا يعيش الحيوان بشكل لا تاريخي: ذلك أنه يتبخَّر في الحاضر مثل رقم دون أن يبقى منه شيء، فهو لا يحسن التظاهر، ولا يخفي شيئًا، ويظهر في كلِّ لحظة ودائمًا كما هو، ولا يستطيع أن يكون إلا صادقًا. أمّا الإنسان فبعكس ذلك؛ فإنه يتكئ على ثقل الماضي الذي ما برح يزداد ثقلاً، يضغط عليه هذا الثقل، أو يدفع به جانبًا، يُثقل خطاه مثل عبءٍ

غير مرئي ومُعتم، ويمكن للإنسان أن يتظاهر بإنكاره، وهو ما يُحبذ فعله خلال حضور الآخرين حتى يثير غيرتهم، ولهذا تجده يشعر بالدهشة، كما لو أنه يفكر في جنَّة مفقودة عندما يرى القطيع في المرعى، وحين يرى الطفلَ الذي ليس له من ماضٍ ينكره، والذي بين أسيجة الماضي والمستقبل يستغرق في ألعابه مُغتبطًا غير عابئ بشيء. وعلى الرغم من ذلك فإن الطفل لا يمكنه أن يستمر في اللعب دون أن يتم إزعاجه، ففي وقت باكر سيتمُّ إخراجه من النسيان، حينها سيتعلم فهم العبارة الآتية: "كان يومًا". هذه الكلمة المفتاح، التي عبرها يقترب الكفاح والألم والسأم من الإنسان من أجل تذكيره بحقيقة وجوده: ماضٍ ناقصٌ لا يكتمل ألبتة. وحين يأتي الموت بالنسيان -الذي طالما رغب فيه- فإنه يسرق منه الحاضر والكينونة أيضًا، ويضغط عبر ذلك بختمه على تلك المعرفة التي تقول إن الكينونة مجرد سلسلة غير منقطعة من الأحداث الماضية، شيء يعيش من خلال إنكار نفسه وتدميرها، يتناقض معها باستمرار.

إذا كانت السعادة أو التوق إليها من يدفع -في معنىً ما- الكائنَ الحيّ إلى التمسك بالحياة، ويدفع به للاستمرار في الحياة، فإننا لن نجد فيلسوفًا لربّما على حق مثل الكلبيّ؛ ذلك أن سعادة الحيوان -التي تمثل الشكل الأكثر اكتمالاً للكلبيّة- هي الدليل الحي على صحَّة الموقف الكلبيّ، فالسعادة الصغرى يكفي أن تتحقق دون انقطاع، وأن تُسعد الإنسان حتى تكون -لا ريب- أكبر من السعادة الكبرى، التي تأتي كحلقة شبيهة بنزوة فقط، كخاطرة رائعة وسط سأم كبير، مجرد رغبات وحرمان، لكن السعادة -صغيرةً كانت أم كبيرةً- هي دائمًا نتاج لشيء واحد عبرَه تصبح ما هي عليه، وأعني القدرة على النسيان، أو حتى نقولها بلغة عالمة: إنها ملكة الإحساس اللاتاريخي طوال ديمومة السعادة. إن من لا يستطيع أن يستوطن عتبة اللحظة، وقد نسي الماضي كله، ومن لا يستطيع عند نقطةٍ ما أن يقف مثل إلهة النصر

دون دُوَار ودون خوف لن يعرف ألبتة ما السعادة، والأسوأ من ذلك لن يستطيع عمل شيء ألبتَة من شأنه أن يُسعد الآخرين.

لنتخيل المثال الأكثر اكتمالاً: إنسان محروم كُلّيًا من ملكة النسيان، ومحكوم بأن يرى في كل شيء صيرورة تحوّل، مثل هذا الإنسان لن يؤمن بعد ذلك بكينونته الخاصة به، ولن يؤمن بنفسه وهو يرى كل شيء يجري في نقاط متحركة، وسيضيع في تيار هذا التحول. وكتلميذ حقيقي لهراقليطس لن يجرؤ على رفع أصبعه في وجه ما يحدث. وإلى كل فعل ينتمي النسيان تمامًا كما أنه إلى كل حياة عضوية لا ينتمي الضوء فقط بل العتمة أيضًا. إن من شأن إنسان لا يطلب أن يُحس بما يجري سوى بطريقة تاريخية خالصة أن يشبه -لا ريب- شخصًا أُجبر على البقاء مستيقظًا، أو حيوانًا حُكم عليه باجترار العلف وإعادة اجتراره نفسه للبقاء حيًّا. إذن إنه من الممكن أن نعيش بدون ذكرى تقريبًا، بل أن نعيش سعداء كما يُظهر الحيوان لنا ذلك، لكن من المستحيل أن نستمر في الحياة دون نسيان. أو حتى أعبّر عن موضوعي ببساطة: هناك درجة من الأرق، من الاجترار من المعنى التاريخي، تُضر بالكائن الحي، وتنتهي بالقضاء عليه سواءً أتعلق الأمر بإنسان أم بشعب أم بثقافة، وعبر تحديد هذه الدرجة -ومن خلال تلك الحدود التي يتوجب فيها نسيان الماضي حتى لا يتحول الإنسان إلى حفّار قبر الحاضر- يتوجب أن نعرف بشكل دقيق القوة الخلقية لإنسان وشعب وحضارة، وأعني بذلك هذه القوة التي تسمح بالنمو خارج الذات، وبتحويل أشياء الماضي وامتلاكها، وعلاج الجراح وتضميدها، وتعويض ما ضاع، وإعادة بناء الأشكال المهشمة عبر إمكانيات الذات نفسها. إن هناك أناسًا لا يمتلكون هذه القوة إلا بشكل ضعيف، وغالبًا بسبب ظلم أو جرح صغير ينزفون بشكل لا أمل في علاجه، وآخرون لا تؤثر فيهم الأحداث الأكثر رعبًا وتأثيرًا إلا بشكل ضعيف، حتى إنهم في خضم الأزمة الأكثر عنفًا أو بعدها ينتهون إلى نوع من الارتياح وهدوء الضمير. وكلما امتلكت الطبيعة الداخلية للإنسان جذورًا قوية تمكّن من امتلاك الشيء الكثير

من الماضي، ولو طلبنا تصور الطبيعة الأكثر قوةً وعظمةً فإننا سنتعرفها باعتبارها تتجاهل حدود المعنى التاريخي التي يمكنه فيها أن يؤثَر بها وبشكل ضارٍّ وطفيلي. إن من شأن هذه الطبيعة أن تجذب إليها كل الماضي الخاص بها والغريب، وتسيطر عليه وتحوّله بشكلٍ ما إلى دم، وما لا تستطيع مثل هذه الطبيعة التغلّب عليه تعرف كيف تقذف به إلى غياهب النسيان. لا شيء هنا، والأفق مغلق بشكل كامل، ولا شيء يمكنه أن يذكّرنا بأنه فيما وراء هذا الأفق هناك بشرٌ ورغباتٌ، ومذاهبُ وأهدافٌ. إن الأمر يتعلق هنا بقانون كوني؛ فكلّ ما هو حيّ لا يمكنه أن يصبح صحيحًا وقويًا وخصبًا إلا في ظل حدود أفق معين، ولكن إذا ما عجز عن تحديد أفقه، وإذا ما كان مدفوعًا من جهة أخرى بشكل كبير نحو أهداف شخصية من أجل أن يهب لما هو غريب طابعًا فرديًّا فإنه يمضي بشكل سريع وعقيم نحو انهياره. إن الطمأنينة والضمير المرتاح والعمل الفرح والثقة بالمستقبل كل ذلك يرتبط لدى الفرد -كما لدى الشعب- بوجود خط فاصل بين ما هو واضح: ما يمكننا رؤيته بأعيننا، وما هو معتم، ومرتبط بمملكة النسيان في اللحظة المناسبة تمامًا، كما أن التذكر في اللحظة المناسبة -حين يكون ذلك ضروريًّا- يرتبط بالغريزة القوية التي نستعملها من أجل أن نحس متى يتوجب أن نرى الأشياء من وجهة نظر تاريخية، ومتى يتوجب ذلك من وجهة نظر لا تاريخية. تلك هي القاعدة التي ندعو القارئ لتأملها: **إنّ اللاتاريخيّ والتاريخيّ ضروريان لصحة الفرد والشعب والثقافة.**

كلٌّ يريد في هذا السياق أن يبدأ بهذه الملاحظة: إن المعارف والأحاسيس التاريخية لأي إنسان يمكنها أن تكون جد محدودة، وأفقه لربما ضيقٌ، مثل ساكن وادٍ من أودية جبال الألب، وفي كل حكم من أحكامه يمكنه أن يكون ظالمًا، وفي كل تصور يمكنه اقتراف خطأ اعتبار نفسه أول من تصور ذلك. ولكن -وبالرغم من كل المظالم والأخطاء- سيُحافظ على صحته وحيويته التي ستُسعد كل من تقع عيناه عليه، وقريبًا منه فإن ذلك الذي يتمتع بحس عدالة ومعرفة لا نهائيين سيتداعى ويذهب

إلى نهايته؛ لأن حدود أفقه غير مستقرة وفي حركة دائبة، ولأنه عاجز عن التحرر من الشباك الرفيعة التي يسيجه بها عقله المستغرق في عدالاته وصدقه، لكي يلتحم بالإرادة الصلدة والرغبة الهائجة. لقد رأينا عكس ذلك الحيوان، وهو المتجرد بشكل كامل من التصورات التاريخية، والذي يعيش فيما يشبه أفقًا تحدده نقاط، يعيش على الرغم من ذلك في سعادة نسبية، وعلى الأقل دون تخمة ورياء. إن علينا أن نعدّ ملكة القدرة على الإحساس بطريقة لا تاريخية الملكة الأكثر أهمية وأصالة؛ ففيها يكمن الأساس الذي يمكن أن نبني عليه شيئًا حقيقيًّا صحيحًا وكبيرًا، شيئًا إنسانيًّا بشكل حقيقي. فما هو غير تاريخي تجده شبيهًا بأجواء آمنة، يمكن فيها للحياة أن تولد لكي تختفي من جديد مع اختفاء هذه الأجواء. وفي الحقيقة فإن الإنسان لا يصبح إنسانًا إلا حين يصل عبر التفكير وإعادة التفكير، وعبر الموازنة، وعبر الفصل والجمع إلى تحديد هذا العنصر اللاتاريخي، ويصبح الإنسان إنسانًا شرط أن ينبعث من الغمام الذي يغطيه شعاع ضوء واضح وبراق عبر امتلاك قوة استعمال ما مضى لصالح الحياة، وعبر قدرته على أن يصنع مما حدث تاريخًا. لكن حينما يتم الإفراط في التاريخ يتوقف الإنسان من جديد، فلولا غطاء اللاتاريخي لما تمكَّن ألبتة من اجتراح بدايته، ولولاه لما تجرأ على فعل ذلك. فأين نجد هذه الأعمال التي كان بإمكان الإنسان تحقيقها دون أن يسبق له النفوذ من بين ضباب اللاتاريخي؟ أو -حتى نترك الصور جانبًا ونوضح استدلالنا بمثال- لنتخيل رجلاً وقد عصفت به عاطفة قوية سواءً تجاه امرأة أو تجاه فكرة كبيرة، كم سيتغير العالم أمام عينيه؟! حين ينظر خلفه يشعر بنفسه أعمى، وحين يصغي لما يحدث من حوله يسمع أصواتًا غامضة وبلا معنى، وما يراه لم يره ألبتة بهذا الشكل، يحسه قريبًا مُلونًا مُدويًا مُضيئًا، كما لو أنه يشعر به وبكل حواسه دُفعة واحدة. كل ما يستحق التقدير هو لديه مُتغير وفاقدٌ للقيمة، وهناك أمور كثيرة لا يمكنه بعدُ احترامُها؛ لأنه بالكاد يستطيع الإحساس بشيء، وهو يتساءل إن ظلّ لزمن طويل مخدوعًا بكلمات أجنبية وبآراء أجنبية. إنه

يندهش لأمر ذاكرته التي تدور بلا كلل في الدائرة نفسها، ومع ذلك فهو يجد نفسه ضعيفًا جدًّا ومُتعبًا للغاية بشكل لا يستطيع معه القيام ولو بقفزة واحدة خارج هذه الدائرة. إنه الوضع الأكثر ظلمًا الذي يمكنه تخيُّله، ضيق جاحد إزاءَ الماضي، أعمى أمام المخاطر، أصم أمام التحذيرات، يشبه الأمر إعصارًا صغيرًا في بحر ميت من الليل والنسيان. وعلى الرغم من ذلك فإن هذا الوضع -لا تاريخيًّا ومناقضًا للتاريخ بشكل كلي- هو الحضن الذي سيولد فيه كل فعل عادل، وليس ذلك الفعل الظالم فقط. ولن تجد فنانًا يستطيع أن يُنجز عمله، ولا جنرالاً يحقق انتصاره، ولا شعبًا يحقق حريته دون أن يكون قد رغب في ذلك، وأمل في تحقيقه بشكل أولي في وضع لا تاريخي، تمامًا كما أن الذي يجترح الفعل -وفقًا لعبارة غوته- هو دائمًا دونَ ضمير، فهو في الآن نفسه مجرد من العلم، وهو ينسى أغلب الأشياء لكي ينجز شيئًا واحدًا. إنه ظالم إزاء ما يوجد خلفه، ولا يعرف سوى حقٍّ واحد، حق هذا الذي يتوجب أن يكون. وهكذا يُحب كل فاعل عمله بشكل لانهائي أكثر مما يستحق هذا العمل، وتتحقق الأعمال الجيدة في ظل هذا الحب المفرط بشكل يجعلها -على كل حال- لا تستحق هذا الحب، حتى وإن كانت قيمتها كبيرة بشكل يستعصي على كل حساب.

وإذا تمكن شخصٌ ما من أن يتتبع ويتنفس هذا الجو اللاتاريخي، الذي يتكون فيه كل حدث تاريخي كبير، فإنه سينجح لربما -كجوهر عارف- أن يرتقي إلى مستوى فوق-تاريخي، كما وصفه نيبور (Niebuhr) مرة[1] كنتيجة ممكنة للاعتبارات التاريخية. "لشيء واحد على الأقل" -يقول نيبور- "يفيدنا التاريخ المفهوم بشكل واضح وتفصيليّ، وهو أن ندرك أن أكبر عقول النوع البشري وأعلاها لا تعرف أي صدفة ستشكل عينها، والتي عبرها ستبصر الأمور، وعبرها تطالب أيًّا كان وفي عنفٍ بأن يُبصر بها تبصر، وأقول في عنف بفعل كثافة وعيها الكبيرة، ومن لم يتيقن

---

1 بارتولد غيورغ نيبور (1776-1831) مؤرخ ألماني يعدّ من مؤسسي علم التاريخ الفيلولوجي-النقدي. من مؤلفاته: **التاريخ الروماني** (في ثلاثة أجزاء). (المترجم).

من ذلك بعد، ومن لم يعرفه ويدركه في حالات كثيرة، سيستسلم عند ظهور روح قوية ستحمل في شكل معطىً العاطفة الأكثر عظمة". يتوجب أن نسمي هذه النظرة الفوق-تاريخية؛ لأن من يتبناها لن يتمكن من الشعور بإغواء الاستمرار في الحياة والمساهمة في التاريخ، وسيدرك عبرها شرط كل ما يحدث، وأعني عمى البصيرة والإجحاف الذي يطبع روح كل فاعل، وسيشفى من كل ميل للنظر إلى التاريخ من هنا فصاعدًا بجدية مفرطة، لو أنه تعلَم -أمام كل إنسان وأمام كل حدث- لدى الإغريق أو الأتراك، سواءً أتعلق الأمر بساعة في القرن الأول أم التاسع عشر للإجابة عن السؤال: كيف يتوجب علينا أن نعيش؟ ولماذا؟ ومن يسأل معارفه ما إذا كانوا يرغبون أن يعيشوا مرة أخرى العشر أو العشرين سنة الماضية، سيدرك في سهولة من منهم مستعد لتلك النظرة فوق-التاريخية (überhistorisch). بالطبع سيجيبون أجمعهم بلا! لكنهم سيستدلون على هذا الرفض بطرق مختلفة، فمنهم من سيأمل ربما في نوع من المواساة الذاتية بأن "تكون العشرين سنة القادمة أفضل". عن هؤلاء يقول دافيد هيوم (David Hume) في هزء:

يأملون أن يحصلوا من فضلة الحياة

ما لم يمنحهم إياه دفق الشباب[1]

نريد أن نسميهم البشر التاريخيين، تدفع النظرة إلى الماضي بهم نحو المستقبل، تشحذ همتهم للمقاومة أكثر، تُوقظ أملهم بقدوم الخير، وبأن السعادة تقبع خلف الجبل الذي يتجهون نحوه. إن هؤلاء البشر التاريخيين يعتقدون بأن معنى الكينونة سيكشف عن نفسه أكثر فأكثر من خلال تأمل مجرى صيرورته. إنهم ينظرون -ولهذا

---

1 أبيات من مسرحية للشاعر الإنجليزي جون درايدن (1631 ـ 1700)، وقد استشهد بها الفيلسوف الاسكتلندي دافيد هيوم (1711 ـ 1776) في كتابه **حوارات حول الدين الطبيعي**. استشهد نيتشه بالنص الإنجليزي. (المترجم).

السبب- إلى الخلف ليفهموا الحاضر عبر اعتبار الماضي، وحتى يتعلموا كيف يرغبون بقوة في المستقبل. إنهم لا يعرفون أنهم يفكرون ويعملون بشكل تاريخي، بالرغم من كل تاريخهم، وبأن انشغالهم بالتاريخ لا يخدم المعرفة المحضة بقدر ما يخدم الحياة.

لكن هذا السؤال الذي سمعنا الإجابة الأولى عنه يمكن أيضًا أن نجيب عنه بشكل آخر، بالطبع مرة أخرى بالنفي! لكن بنفي يقوم على تأسيس مختلف؛ فالنفي الذي يُعبر عنه الإنسان فوق-التاريخي لا يجد خلاصه في سيرورة التاريخ، بل يرى بالأحرى أن العالم ينتهي ويبلغ غايته في كل لحظة. ماذا بمقدور عشر سنوات قادمة أن تعلمنا ما لم تستطع تعليمنا إياه عشرُ سنوات مضت؟!

أمّا السؤال عمّا إذا كان معنى هذا الدرس يكمن في السعادة أو الاستكانة، الفضيلة أو التوبة، فإنه أمر لم يجمع عليه البشر فوق-التاريخيين يومًا ألبتة، ولكن -وضد كل أشكال الاعتبار التاريخي للماضي- تجدهم متفقين على التعبير بأن الماضي والحاضر وجهان لعملة واحدة، أي إنهما -رغم كل اختلافهما- متشابهان بشكل نموذجي. إنهما يمثلان معايير راسخة وعامة، كيانًا ثابتًا قيمته لا تقبل التحول، ودلالته ثابتة، تمامًا كما أن مئات من اللغات المختلفة تتطابق مع الحاجات الثابتة والنمطية نفسها، بحيث إن من يفهم هذه الحاجات لن يتعلم شيئًا جديدًا من كل هذه اللغات. والأمر نفسه يصدق على المفكر فوق-التاريخي، الذي في إضاءته لتاريخ الشعوب والأفراد بأكمله من الداخل يخمن في استبصار المعنى الأصلي للهيروغليفيات المختلفة، بل متجنبًا بشكل تدريجيّ وفي كلل العلامات المتدفقة باستمرار، إذ كيف يمكنه -بالنظر إلى الوفرة اللانهائية للأحداث- ألا يصل إلى الشبع، بل إلى التخمة، إن لم يكن إلى الغثيان! بحيث إن الأكثر تهورًا سيكون مستعدًّا للترديد من قلبه مع جياكومو ليوباردي (Giacomo Leopardi):

"ما من شيء حيٍّ يستحق

انفعالاتك، والأرض لا تستحق تنهيدةً واحدةً

ألم وملل هو وجودنا وبراز هذا العالم ـ لا شيء آخر.

اهدأ واستكن"[1].

لكن لنترك للبشر فوق-التاريخيين تقززهم وحكمتهم؛ فاليوم نريد أن نحتفي -ومن أعماق قلبنا- بافتقادنا الحكمة، وأن نتمتع بيومنا كرجال للفعل والتقدم، وكمغرمين بالتطور. لكن قد يكون تقديرنا للتاريخ مجرد حكم مسبق غربي! وسيكون رائعًا لو أننا -على الأقل- بداخل هذا الحكم المسبق نتقدم ولا نتوقف! ولو أننا نتعلم بشكل أفضل كيف نمارس التاريخ لغرض الحياة! ثم نريد أن نعترف لمن هم فوق-تاريخيين -وعن طيب خاطر- بأنهم يملكون حكمة أكبر من حكمتنا في حال سُمح لنا بأن نكون متيقنين من أننا نملك قدرًا أكبر من الحياة موازنةً بهم، إذ عبر ذلك ستمتلك لا حكمتنا في كل الأحوال مستقبلاً أكبر من حكمتهم. وحتى لا يكون هناك أي شك حول معنى هذا التناقض بين الحياة والحكمة، أريد أن أركن إلى أسلوب أثبت صحته، وتقديم بعض الأطروحات.

إن معرفة ظاهرة تاريخية بشكل محض وكامل وتحولها إلى ظاهرة للمعرفة هي لدى ذلك الذي أدركها ميتة؛ ذلك أنه عرف فيها الجنون والظلم والرغبة العمياء، بل كل الأفق الأرضي والمظلم لهذه الظاهرة، وعبر ذلك أيضًا قوته التاريخية، وأضحت هذه القوة لديه هي الذات العارفة بلا قوة، ولربما - لديه ككائن حيٍّ- لم تفقد بعدُ شيئًا من قوتها.

حين نفكر في التاريخ كعلم محض وقد استقل بنفسه، سيصبح لدى الإنسانية تعبيرًا عن حصيلة ما قدمته. إن المعرفة التاريخية عكس ذلك، لا تكون مفيدة

---

1 استخدم نيتشه ترجمة (Robert Hamerling) عن الإيطالية، المنشورة عام 1866.

ومنفتحة على المستقبل إلا حين تُصاحب ظهور تيار حياة قوي، وثقافة في لحظة نشوئها مثلاً، إذن حين تكون محكومة من قوة عليا فقط، أو حين تقودها هذه القوة، وليس حين تقود أو تحكم نفسها.

حين يجد التاريخ نفسه في خدمة الحياة فإنه يكون في خدمة قوة لا تاريخية، ولن يصبح ألبتة في هذه الحال من التبعية علمًا محضًا كما هي حال الرياضيات مثلاً، ولا يتوجب عليه ذلك. لكن السؤال المتعلق بالدرجة التي تحتاج فيها الحياة إلى خدمة التاريخ يظل من الأسئلة والمخاوف العظيمة فيما يتعلق بصحة إنسان، وصحة شعب أو ثقافة؛ لأنه عند إفراطٍ معينٍ في الاستناد إلى خدمة التاريخ تتفتت الحياة وتتشوه، بل يصيب هذا التشوه في النهاية التاريخ نفسه.

2

يتوجب أن نفهم في وضوح أن الحياة تحتاج إلى خدمة التاريخ، كما يتوجب أيضًا أن نفهم بوضوح الجملة التي سنستدل عليها لاحقًا، والتي ترى أن إفراطًا في استعمال التاريخ يضر بالإنسان الحيّ. إن التاريخ ينتمي إلى الإنسان الحيّ من نواحٍ ثلاث: إنه ينتمي إليه ككائن فاعل وطموح، وإليه ككائن يحافظ على الماضي ويبجّله، ثم إليه كمتألمٍ وفي حاجة إلى الحريّة. إن هذه العلاقة الثلاثية تتوافق مع ثلاثة أنواع من التاريخ إذا ما كان مسموحًا لنا بالتفريق بينها، وأعني بذلك التاريخ الأثري، والتاريخ العادياتي، والتاريخ النقدي.

إن التاريخ ينتمي خصوصًا إلى الإنسان الفاعل والقويّ، ذلك الذي يقود معركة كبيرة، والذي يحتاج إلى نماذج يقتدي بها، وإلى مُعلمين ومُعزين لا يجدهم بين معاصريه وفي حاضره. وهكذا انتمى التاريخ إلى شيلر (Schiller)؛ لأن زمننا

-كما قال غوته[1]- سيئ إلى درجة أن الشاعر لا يلتقي في الحياة البشرية التي تحيط به طبيعةً يمكنه استعمالها. وفي مراعاة الفاعلين من البشر يذكر مثلاً بوليبيوس (Polybius) التاريخ السياسي بوصفه أفضل إعداد لحكم الدولة، والمُعلم الأكثر براعة، والذي -عبر تذكيرنا بمصائب الآخرين- يحثنا على تحمُّل تقلبات الحظ في ثبات. ومن تعلم تعرُّفَ معنى التاريخ في ذلك فإنه سيزعجه لا غرو رؤية مسافرين فضوليين أو متحذلقين يبعثون على الخجل، وهم يصعدون على أهرامات الأزمنة الماضية العظيمة، هناك حيث يجد محفزات تدعوه إلى تقليد تلك العظمة، أو اجتراح ما هو أعظم منها لا يرغب بلقاء من لا يملك شيئًا يعمله، والذي يتسكع في ولعٍ بحثًا عن التسلية والإثارة، كما لو أنه بين ركام معرض من الصور. إن الرجل الفاعل حين يوجد بين العاطلين الضعفاء ممن يعدمهم الأمل، أو مع من يتظاهرون بالعمل وهم في الحقيقة يبالغون في الحركة حتى لا يشعروا بالقنوط والقرف، فإنه ينظر إلى الخلف ويوقف سيره نحو هدفه ليجمع أنفاسه للحظة. إن هدفه أي سعادةٍ كانت، ولربما ليست بالضرورة سعادته هو، بل غالبًا سعادة شعب أو سعادة البشرية مجتمعة. إنه يتراجع أمام الاستكانة، ويستعمل التاريخ ضد الاستسلام، وفي أغلب الأحيان لا ينتظره أي جزاء، إن لم يكن المجد، أي الأمل بمكان في معبد التاريخ، حيث سيصبح بنفسه لمن سيأتون من بعده مُعلمًا ومُعزيًا ومُحذرًا، فالوصية التي يطلب تحقيقها تقول: إن ما كان بإمكانه في الماضي توسيع مفهوم "الإنسان"، وتحقيق هذا التصور بجمال أكبر يتوجب أن يكون متاحًا بشكل أبديّ حتى يكون قادرًا -وبشكل أبديّ- على تحقيق الشيء نفسه. وبالنظر إلى أن اللحظات الكبرى في صراع الأفراد تشكل سلسلةً من تلك القمم البشرية التي تتوحد في الأعالي عبر آلاف السنين، يظل ما هو شامخ -لديّ- في هذه اللحظات المنصرمة منذ زمن حيًّا وساطعًا وكبيرًا، وتلك هي الفكرة الأساسية في هذا الإيمان بالإنسان، والتي تُعبِّر

1 جاء ذلك في رسالة إلى إيكرمان (Eckermann) بتاريخ 21 يوليو 1827.

عن نفسها في مطلب تاريخ أثريّ. ولكن بالضبط بسبب هذا المطلب الذي يرى أن العظيم يتوجب أن يكون خالدًا يشتعل الصراع الأكثر رُعبًا؛ لأن كل شيء آخر، كل الأشياء التي ما زالت حية تصرخ: لا، فليس من حق ما هو أثريّ أن ينشأ من جديد. إنه الشعار المُضادّ.

إن العادة الفاترة، وكل ما هو صغير ومُنحط -والذي يملأ كل زوايا العالم- ينشر جوَّه الثقيل حول كل ما هو عظيم، ويرمي بعوائقه وخدعه في الطريق التي يتوجب على هذا العظيم أن يقطعها ليبلغ الخلود، لكن هذه الطريق تمر عبر أدمغة البشر! عبر أدمغة حيوانات قلقة وعابرة، يضربها البؤس نفسه دائمًا، وتجهد في حماية نفسها لبعض الوقت من التلف؛ ذلك أن هذه الكائنات -قبل كل شيء- لا تريد سوى شيءٍ واحدٍ: أن تعيش بأي ثمن، فمن يستطيع أن يفترض عندها هذا السباق الصعب لمشعل التاريخ الأثريّ، الذي عبره يستطيع العظيم أن يحيا! وعلى الرغم من ذلك، يستيقظ دائمًا بعض الأشخاص الذين -في نظرهم إلى العظمة الماضية، وفي شعورهم بالقوة عبر تأملهم هذه العظمة- يشعرون بأنفسهم غاية في الحماس، كما لو أن الحياة البشرية أمرٌ جميلٌ، وكما لو أن أجمل ثمرة لهذا النبت المرّ أن نعرف أنه في الماضي قد وُجد شخص مضى في فخار وقوة عبر هذا الوجود، وآخر في فطنة، وثالثٌ في رحمة وتعاطف، ولكنهم جميعًا تركوا درسًا واحدًا يقول: إن من يعيش أجمل حياة هو ذاك الذي لا يأبه بالوجود. وإذا ما أخذ الإنسان العادي هذه المدة الزمنية القصيرة بجديّة ورغبة تُغلفها الكآبة، فإن الآخرين -وهم في طريقهم إلى الخلود وإلى التاريخ الأثريّ- يتمكنون من الارتفاع إلى الضحك الأولمبي أو -على الأقل- إلى ازدراء جليل، وغالبًا ما ينزلون في تهكم إلى قبرهم.

لعمري ماذا لديهم حتى ندفنه؟! وحده ذاك الذي آلمهم دائمًا: الخبث والقذارة والحيوانية، والذي أضحى اليوم نسيًا منسيًا بعد أن كان موضع ازدرائهم منذ زمن، لكن شيئًا واحدًا سيعيش، وهو مونوغرام جوهرهم الخاص، عمل أو فعل، إلهام

نادر، خلق سيعيش؛ لأن الأجيال المقبلة لن تستطيع ألبتة الاستغناء عنه. وفي هذا الشكل الحالم فإن المجد بالطبع شيء أكبر من اللقمة الشهية لكلفنا بذاتنا، كما أسماه شوبنهاور. إنه إيمان بانسجام كل الأزمنة واستمرارية عظمتها. إنه احتجاج ضد تغير الأجناس وضد الفناء.

لكن عبر ماذا يخدم الحاضرَ التأملُ الأثريّ للماضي، هذا الاهتمام بالكلاسيكي والنادر في العصور السالفة؟ إن الإنسان يستنتج أن العظيم الذي تحقق في الماضي كان لا ريب قابلاً للتحقق في الماضي، وسيكون -نتيجة لذلك- ممكنًا في يومٍ ما. إنه يقتفي طريقه في شجاعة؛ لأنه قد غلب الآن الشك الذي استبد به ساعاتِ الضعف، وجعله يتساءل إن كان يطلب المستحيل. لنفترض أن أحدًا مقتنع بأن مئة من الناس المنتجين، الذين تربّوا وعملوا في ظل روح جديدة، ستكفي لكي نطلق رصاصة الرحمة على العقلية السائدة اليوم في ألمانيا، كم ستكون قناعته أكثر قوة لو لحظ أن حضارة النهضة قد ارتفعت فوق أكتاف أمثال هؤلاء المئة من الناس؟ ومع ذلك -وحتى نتعلم من المثال نفسه مباشرة شيئًا جديدًا آخر- كم ستكون هذه الموازنة غير واضحة ومتأرجحة؟ وكم ستكون غير دقيقة؟ وكم من الأشياء الماضية يتوجب عدم الالتفات إليها إذا توجب أن يكون لهذه العودة إلى الوراء تأثير مُقوٍ؟ وبأيّ عنف يتوجب أن تُحشر فردية الماضي في شكل عام؟ وتُحطم كل الزوايا والخطوط الحادة لمصلحة الإجماع؟ وفي حقيقة الأمر فإن ممكن الماضي لا يمكنه أن يتحقق مرة أخرى، إلاّ إذا كان الفيثاغورسيون[1] على صواب في اعتقادهم بأنه كلما اتخذت الأجسام السماوية تركيبًا معينًا، يتوجب على هذا الشكل نفسه أن يتكرر على الأرض، وفي أدق التفاصيل وأصغرها، بحيث إنه إذا اتخذت النجوم وضعية

---

1 تلاميذ الفيلسوف اليوناني فيثاغورس (Pythagoras) (نحو 580 - 500)، وكانوا يدافعون عن فكرة أن العالمين -الأرضي والسماوي- منسجمان ويقومان على مبادئ رياضية. ويعمد نيتشه هنا إلى السخرية من فكرتهم عن العود الأبدي للشبيه. (المترجم).

معينة تجاه بعضها سيتحد الرواقي مع الأبيقوري ويقتلون القيصر[1]، ومن جديد وفي وضعيات أخرى سيكتشف كولومبوس أمريكا. وحين تبدأ الأرض مسرحيتها كل مرة بعد المشهد الخامس من جديد، وإذا ما ثبت للإنسان أن تسلسل المحفزات نفسه، والحدث الفجائي ذاته، والكارثة نفسها تعود في فترات محددة، حينها فقط يمكن للإنسان القوي أن يرغب -وفي صدق أيقوني[2]- في التاريخ الأثري، أي في كل واقعة في خصوصيتها وفرادتها المرسومة بدقة، ولن يكون ذلك لربما محتملاً قبل أن يصبح عُلماء الفلك منجّمين، وحتى ذلك الحين لن يتمكن التاريخ الأثري من استعمال كل صدقه، فدائمًا سيقترب من المتفاوت، سيُعمم ليساوي بين الأحداث في النهاية، ودائمًا سيُضعف الاختلاف بين الدوافع والحوافز من أجل تقديم الأحداث على حساب الأسباب والتأثيرات في شكلها الأثري، أي كنموذج يستحق التقليد، بحيث إنه بإمكاننا -بحكم أنه متحرر بشكل كبير من الأسباب- أن نسميه -في قليل من المبالغة- "الآثار المحضة"، ويعني ذلك كأحداث يمكنها في كل زمن أن تكون مؤثرة. إن ما نحتفل به في الأعياد الشعبية والدينية والعسكرية هو في الواقع واحد من هذه "الآثار المحضة"، فهو ما يمنع الطموحين من النوم، وهو لدى الفاعلين التاريخيين مثل تميمة في القلب، ولكنه ليس بالعلاقة الحقيقية التاريخية بين الأسباب والنتائج، والتي -إن عرفت في مجموعها- ستدلل وحدها بأنه لا يمكن ألبتة أن يصدر الشيء نفسه عن رمية نرد.

وكلما كمنت روح الدراسات التاريخية في الدوافع الكبرى التي يمكن لصانع التاريخ أن يستمدها منها، وكلما توجب وصف الماضي مثل شيء يستحق التقليد

---

1 يعني نيتشه بذلك بروتوس (Brutus) وكاسيوس (Cassius) قتلة القيصر، وكانا من أتباع مدرستي الرواقيين والأبيقوريين الفلسفيتين. (المترجم).

2 يعني القناعة بأن الأحداث التاريخية تكرر نفسها وفقًا للعلاقة: صورة أصلية-نسخة عن الصورة الأصلية. (المترجم).

كما لو أنه قابل للتقليد وممكن التحقق مرة أخرى، فسيتعرض هذا الماضي لا محالة لخطر التشويه، أو التلميع، أو ينحرف عن معناه، وعبر ذلك فإن وصفه سيشبه الشعر المتخيل بشكل حر. بل إن هناك حقبًا غير قادرة على التمييز بين ماضٍ أثري وخيال أسطوري؛ لأنه يمكننا أن نستمد الدوافع نفسها من هذا ومن ذاك، ولكن حين يسيطر الاعتبار الأثري للماضي على الطرق الأخرى للنظر إلى الأشياء -وأعني الطرق العادياتية والنقدية- فإن الماضي نفسه سيتعرض للضرر؛ فأقسام كبيرة منه سيطويها النسيان أو يطولها الاحتقار، وسنتركها تمضي مثل سيل رمادي لا يتوقف، لترتفع بعض الأحداث الملمعة وحدها مثل جزر صغيرة فوقه. والشخصيات النادرة التي تصبح مرئية سيسطع شيء غير طبيعي ورائع في أعينها، شبيه بهذه الورك[1] المذهبة، التي يريد عبرها تلامذة فيثاغورس التعرف إلى معلمهم. إن التاريخ الأثري يخدع عبر القياسات ويثير -عبر أوجه شبه مغرية- جسارة الرجل الشجاع، وتطرف المتحمس. وإذا ما تخيل المرء هذا التاريخ في أيدي الأنانيين الموهوبين والأشرار شديدي الحماس ورؤوسِهم، فسيتم تدمير إمبراطوريات واغتيال أمراء وإشعال حروب وثورات، وسيرتفع عدد الآثار التاريخية الخالصة، وأعني تلك النتائج التي تعدمها أسباب كافية. وتكفي هذه الإشارات للتذكير بالأضرار التي يمكن للتاريخ الأثري أن يخلفها بين البشر الأقوياء والفاعلين، سواءً أكانوا خيِّرين أم سيئين. ولكن لعمري كم ستكون مضرةً تلك النتائج إذا تمكن الضعفاء والكسالى من الاستحواذ عليها وتوظيفها!

لنأخذ المثل الأكثر بساطةً وتكرارًا، لنتصور الطبائع غير الفنية أو الفنية بشكل ضعيف وقد تسلّحت وتدعمت، فضد من ستوجّه الآن أسلحتها؟ ضد أعدائها الأزليين: الفنانين الأقوياء، أي ضد أولئك الذين بإمكانهم وحدهم أن يتعلموا شيئًا

1 قال أرسطو إن تلامذة فيثاغورث كانوا يتعرفون إليه عن بعد عن طريق وركه المذهبة (المترجم).

بصدق من التاريخ، ويعني أن يتعلموه لخدمة الحياة، والقادرين على تحويل ما تعلموه إلى عمل كبير، أمام هؤلاء ستقطع تلك الطبائع الحقيرة الطريق، وتُلبد الأجواء حين تبدأ بالرقص في عبودية وحماس حول أثر عظيم للماضي كيفما كان، ودون حتى أن تفهمه، كما لو أنها تريد أن تقول لنا: "انظروا، هذا هو الفن الحقيقي والواقعي، فيمَ سيهمكم المسكونون بالمستقبل والإرادة؟!" ظاهريًا يمتلك هذا السرب الراقص أيضًا امتياز "الذوق الرفيع"؛ ذلك أن المبدع يجد نفسه دائمًا في الجهة الخاسرة موازنة بذلك الذي لا يفعل شيئًا آخر غير الفرجة دون أن يحرك ساكنًا. وكما هي الحال في كل الأزمنة، فإن الثرثار السياسي يبدو أذكى وأعدل وأعمق فكرًا من رجل الدولة الذي يدير دفة الحكم. وإذا طلبنا نقل استعمال الاستفتاءات الشعبية ونظام الأغلبية إلى مجال الفن، وإرغام الفنان على الدفاع عن نفسه أمام منتدى المتسكعين الجماليين، فإنه بمقدورنا أن نُقسم مسبقًا بأنه ستتم إدانته لا محالة، ليس بالرغم من معايير الفن الأثري ولكن بالضبط لأن قضاته ينادون (ويعني ذلك وفقًا للتصريح الذي تم الإدلاء به: هذا الفن الذي سيملك تأثيرًا في كل الأزمنة) في احتفالية بهذه المعايير التي لا تتوفر في كل فن غير أثري؛ لأن الفن المعاصر تنقصه الحاجة أولاً، وثانيًا: الميل الفني، وثالثًا في الواقع: سلطة التاريخ حين تكشف لها غريزتها عن إمكانية قتل الفن بالفن. ويتوجب ألا ينشأ الأثري على الإطلاق مرة أخرى عبر ذلك، وهنا يتم الاعتماد على ما يستمده التاريخ الأثري من الماضي. هكذا هم العارفون بالفن، ولأنهم يريدون بالضبط القضاء عليه فإنهم يقدمون أنفسهم كأطباء، في حين أنهم في العمق يتصرفون مثل من يُعدُّ سُمًّا، هكذا يطورون ذائقتهم لكي يوضحوا -عبر دلالهم المعتاد- لماذا يرفضون -بهذا الإلحاح- كل ذلك الذي يُقدم لهم بوصفه فنًّا حقيقيًّا؛ ذلك أنهم لا يريدون للعظيم أن ينشأ، ووسيلتهم أن يقولوا: "انظروا، إن العظيم موجود بالفعل هنا!". وفي الحقيقة فإنهم لا يبالون كثيرًا بهذا العظيم الموجود بالفعل هنا، ولا بما هو في طور النشوء، وحياتهم خير شاهد على ذلك.

إن التاريخ الأثري هو القناع الذي يرتديه حقدهم على كبار زمنهم، وهو القناع الذي يحاولون تقديمه مثل تعبير عن الإعجاب المشبع بعظماء الأزمنة المنصرمة. إن هذا القناع يسمح لهم بأن يغيروا المعنى الحقيقي لهذا التصور عن التاريخ إلى معنى مناقض تمامًا. وسواءً أأدركوا ذلك أم لم يدركوه فإنهم يتصرفون كما لو أن شعارهم يقول: دعوا الموتى يدفنون الأحياء. إن كل واحدة من أشكال التاريخ الثلاثة هذه تمتلك صلاحية، لكن في أرضية واحدة فقط، وفي ظل مناخ محدد، وفي كل المجالات الأخرى لن تنمو إلا كأعشاب ضارة. وإذا ما احتاج الإنسان الذي يطلب تحقيق شيء عظيم إلى اعتبار الماضي فإنه يستحوذ عليه عبر التاريخ الأثري. أما من يطلب عكس التمسك بما هو معتاد، وبما يحظى بالاحترام في كل زمن، فإنه سيهتم بالماضي مثل مؤرخ عادياتي. إنه الوحيد الذي يعذبه قلق الحاضر، والذي يريد أن يتخلص بأي ثمن من هذا الثقل، وهو الوحيد الذي يشعر بالحاجة إلى تاريخ نقدي، أي تاريخ يُحاكم ويحكُم. إن عملية غير مدروسة لزرع النباتات قد تأتي بما لا يحمد عقباه، مثلاً: بناقد لا تحركه قضية، أو عادياتي عديم الوفاء، أو ذاك الذي يعرف العظيم دون أن يكون قادرًا على الإتيان به، تلك هي النباتات التي أضحت غريبة عن أرضها، فتشوهت وتحولت إلى أعشاب ضارّة.

3

ينتمي التاريخ بدرجة ثانية إلى من يحافظ على الماضي ويقدسه، إلى من يدير أعينه في وفاء وحب نحو المكان الذي جاء منه ونشأ فيه. وعبر هذه التقوى إزاء الماضي يعبر العادياتي في الآن نفسه عن شكره لكينونته، وفي اهتمامه بما وجد في كل الأزمنة يريد المحافظة على الشروط التي نشأ فيها للذين سيأتون بعده، وهذه هي الخدمة التي يقدمها للحياة. إن امتلاك تراث الأجداد سيتخذ معه تصورًا جديدًا؛ فهو الآن من يملك هذا الماضي. فما هو صغير ومحدود وهرم ومتقادم يجد كرامته وحصانته

في الروح المحافظة والمقدسة للماضي التي يتمتع بها العادياتي، هذه الروح تنتقل إلى هذه الأشياء وتتخذها مسكنًا. إن تاريخ مدينته يصبح تاريخه؛ فهو يفهم أسوارها، وأبواب أبراجها، وقرارات حكامها، واحتفالاتها الشعبية، كل ذلك يظهر له مثل مذكرات مصورة تحكي قصة شبابه، حيث يجد نفسه في كل هذه الأشياء؛ يجد فيها قوته ونشاطه، ولذته وملكة حكمه، وجنونه وانحرافه، وتراه يقول لنفسه: مثل هذا المكان يستحق أن نعيش فيه؛ لأنه يسمح لنا بذلك، ها هنا سنعيش إذن؛ لأننا شديدو الجلد ولا يكسر إرادتنا أحد. وعبر هذه النحن ينظر العادياتي أبعد من حياته الشخصية الماضية، ليشعر بنفسه روح هذا البيت وهذا العرق وهذه المدينة، وأحيانًا يُحيي من فوق القرون المظلمة روحَ شعبه كما لو أنها روحه، وتكمن مواهبه وفضائله في قدرته على الشعور والاستشعار من خلال الأشياء، أي قدرته على اقتفاء الآثار التي أوشكت أن تنمحي، وقراءة الماضي بكفاءة غريزية مهما تداخلت خصائصه وحجب بعضُها بعضًا. إنه يفهم الطروس، بل حتى تلك الممسوحة مراتٍ عدةً، تلك هي مواهبه وفضائله. إنها المواهب والفضائل التي امتلكها غوته لمّا وقف أمام تمثال إرفين فون شتاينباخ (Erwin Von Steinbach)، فأحاسيسه الجيّاشة ستبدد السحابة التاريخية التي تفصله عن الماضي، وسيرى لأول مرة الإنجاز الألماني والروح الألمانية القويّة التي تكمن خلفها. إنه المعنى نفسه الذي قاد الإيطاليين في عصر النهضة، وأيقظ مجددًا فيهم عبقرية إيطاليا القديمة (الصدى الرائع للعبة الوترية القديمة) بعبارة ياكوب بوركهارت. لكن معنى التقديس التاريخي والعادياتي يبلغ قيمته القصوى حين ينشر في تلك الأوضاع المتواضعة والقاسية والسقيمة التي يعيش فيها إنسان أو شعب إحساسًا بالفرح واللذة. يعترف نيبور مثلاً بكل وفاءٍ بإمكانية أن يعيش سعيدًا بين الفلاحين الذين يملكون تاريخًا دون أن يشتاق إلى الفن، لكن كيف يمكن للتاريخ أن يخدم الحياة بشكل أفضل إن لم يكن ذلك عبر إشراكه الشعوب والأعراق المهمشة في وطنها وعاداته ليحولهم إلى حضر، ويُحول

دون أن يهاجروا بحثًا عن حياة أفضل، ودون أن يتنازعوا لأجل ذلك؟ أحيانًا يبدو أن العناد واللامعقول هما اللذان يربطان الفرد بهذه الجماعات والمناطق، وبهذه العادة المتعبة، وبالجبال الجرداء في آنٍ، لكنه اللامعقول الأكثر فائدة للجماعة؛ فالكل يعرف التأثيرات المرعبة لروح الترحال والمغامرة حين تستبد بشعوب بكاملها إذا ما رأى عن قرب شعبًا فقد وفاءَه لماضيه، وتلبسته رغبة محمومة نحو كل ما هو جديد. إن نقيض هذا الإحساس يتمثّل في اللذة التي تسكن جذور الشجرة، وفي سعادة المرء حين يعلم أنه لم يأتِ إلى العالم اعتباطًا أو صدفةً، بل إنه نما من الماضي مثل إرث أو زهرة متفتحة أو ثمرة، وهو ما سيجد عُذرًا للوجود، بل يُبرّره. إنه ذاك الذي نسميه الآن في ولعِ المعنى التاريخي الحقيقيّ.

لا ريب أنها ليست الوضعية التي تسمح للإنسان بأن يكون أكثر قدرة على تحويل الماضي إلى محض معرفة، بحيث إننا نلاحظ هنا أيضًا ما سبق أن لاحظناه عند دراستنا التاريخ الأثري، وهو أن الماضي نفسه يعاني الأمرين طالما كان التاريخ في خدمة الحياة وكان محكومًا بغريزة الحياة. ويمكننا هنا أن نقدم صورةً حرةً لتوضيح ذلك: إن الشجرة تشعر بجذورها أكثر مما تستطيع رؤيتها، ولكن هذا الإحساس يقيس عظمة الجذور انطلاقًا من عظمة الأغصان الظاهرة وقوتها. وإذا كانت الشجرة ستخطئ في ذلك فكم سيكون خطؤها عظيمًا إذا طلبت الحكم على الغابة التي تحيط بها بأكملها، هذه الغابة التي لا تعرفها وتحس بها إلا بقدر ما تعوقها أو تحفزها، وليس بشكل آخر. إن المعنى العادياتي لإنسان ولمدينة ولشعب بكامله يمتلك دائمًا أفقًا محدودًا؛ فهو ليس بإمكانه رؤية أغلب الأشياء، والقليل ممّا يراه يبصره عن قرب وبشكل منعزل. إنه لا يستطيع قياس ذلك، ولذلك يرى كل شيء مُهمًّا، ويعطي لكل تفصيل أهميةً كبيرةً. لكن فيما يتعلّق بأشياء الماضي لا يوجد اختلاف في القيمة أو النسبة تلك التي بإمكانها أن تجعل الأشياء عادلة في علاقتها بعضها ببعض،

فقياسات الأشياء ونسبها لا يمكن القيام بها إلا في علاقة بالفرد أو الشعب الذي يريد النظر إلى الماضي من وجهة نظر عادياتية.

هنا يوجد دائمًا خطر محدق: سيتم النظر أخيرًا إلى كل ما هو قديم وماض، وما سيدخل في مجال التاريخ كشيء يستحق التقدير، في حين أن كل ما لا ينظر في مهابة إلى القدامى -أي ما هو جديد أو في طور النشوء- سيتم رفضه ومعاداته. وهكذا تسامح حتى الإغريق مع الأسلوب الهيروغليفي لفنونهم مع جانب الأسلوب الحر والعظيم. أجل، سيتسامحون لاحقًا مع الأنوف الحادة والابتسامات الباردة، وليس ذلك فقط، بل سيصنعون منها أشياء ممتعة. وإذا ما تحجر إحساس بهذا الشكل الكبير، وأضحى التاريخ يخدم الحياة الماضية بشكل يقبر فيه الاستمرار في الحياة ومعه كل حياة عظيمة، وحين يعمد المعنى التاريخي إلى تحنيط الحياة بدل المحافظة عليها، حينها تموت الشجرة، وبشكل غير طبيعي يبدؤها الموت من أغصانها، ليدب نازلاً حتى الجذور، ويحدث الأمر نفسه مع التاريخ العادياتي حين تتوقف حيوية حياة الحاضر النضرة عن ضخّ الروح فيه، يضمُر الوفاء للماضي، وتستمر العادة المتحذلقة دون هذا الوفاء، وتدور في حركة أنانيّة حول نفسها، آنذاك نقف على المشهد النتن لهوسٍ أعمى بجمع التحف، ومراكمة لا تكل ولا تمل لآثار الماضي، وسيحيط الإنسان نفسه بجوٍّ عتيق، وسينجح أيضًا في القضاء على مواهب عظيمة وطموحات كبيرة بسبب هوسه بما هو قديم، وفضوله الذي لا يشبعه شيء، أحيانًا يسقط إلى أسفل سافلين بشكل يجعله يبتهج بسقط المتاع، ويلتهم في تلذذ الكتب الصفراء التي يكسوها الغبار.

وحتى إذا لم يحدث ذلك التشوه، ولم يفقد التاريخ العادياتي الأساس الذي يسمح له أن يخدم الحياة، فإن أخطارًا كثيرةً تظل محدقةً إذا ما اكتسب هذا التاريخ قوةً كبيرةً، وغطّى على أشكال التعامل الأخرى مع الماضي. إن التاريخ العادياتي يعرف كيف يحافظ على الحياة، ولكنه لا يعرف كيف يخلقها. إنه يحط دائمًا من قيمة ما

هو في طور النشوء؛ إذ تعدمه الغريزة التي يمكنها أن تسمح له بتخمين ذلك، تلك التي يحتويها التاريخ الأثري مثلاً، وهكذا يعوق التاريخ العادياتي اتخاذ قرار قوي لمصلحة كل ما هو جديد، ويشلّ الفاعل التاريخي، الذي -باعتباره فاعلاً- سيُضطر لا ريب إلى التمرد على بعض أشكال الوفاء للماضي. إن واقع أن شيئًا ما قد أضحى هرمًا يخلق الآن الرغبة في الاعتقاد بأنه لا يموت، ذلك أنه إذا أردنا تأمل شيء اتخذ -خلال حياة بشرية- طابعًا عادياتيًّا مثل عُرف قديم، أو عقيدة دينية، أو امتياز سياسي متوارث، وتأملنا مقدار التقديس الذي تلقّاه من الأفراد والأجيال فسيبدو لنا أنه أمر متهور -إن لم يكن شريرًا- أن نستبدل مثل هذا القديم بجديد، ونضع مقابل هذا التراكم الكبير من التقديس والوفاء للماضي أشياءَ هي في طور النشوء أو أشياءَ راهنةً.

وهنا يبدو واضحًا كيف أن الإنسان يحتاج بالضرورة -إلى جانب التاريخ الأثري والتاريخ العادياتي- إلى شكل آخر من التاريخ هو التاريخ النقدي، وأن يضع هذا التاريخ أيضًا في خدمة الحياة. إن الإنسان يحتاج إلى امتلاك القوة واستعمالها من حين إلى آخر من أجل تحطيم ماضٍ ما ونقضه حتى يتمكن من الحياة. إنه أمر يحققه عبر جرّ هذا الماضي إلى المحكمة، والتحقيق معه بصرامة قبل أن يُصدر حكمه عليه في النهاية. إن كل ماضٍ يستحق الحكم عليه؛ فهذا واقع الأشياء الإنسانية التي دائمًا ما تكون محكومةً بالضعف والقوة الإنسانيين. إنها ليست العدالة هنا من تُحاكم وتحكُم، ولا حتى الرحمة من تنطق هنا بالحكم، ولكنها الحياة وحدها، أي تلك القوة المُعتمة والدافعة، والتي لا يسد رمق رغبتها في ذاتها شيء. إن حكمها قاسٍ دائمًا، ودائمًا ظالم؛ لأنه لا ينهل ألبتة من نبع واحد للمعرفة، ولكن في أغلب الأحيان فإن الحكم سيصدر بتلك الطريقة، حتى لو كانت العدالة نفسها من تقف خلفه. "ذلك أن كل ما يولد يستحق أن يندثر، لذلك يُفضّل ألاّ يولد شيء". إننا نحتاج إلى قوة كبيرة حتى نتمكن من الحياة، وحتى ننسى بأن الحياة والظلم كليهما شيء واحد. بل

إن لوثر نفسه عبّر يومًا عن أن العالم قد نشأ بسبب لحظة سهوٍ إلهية، وأنه لو حدث أن فكر الإله في الأمر لَمَا أقدم على خلق العالم. وتطالب الحياة أحيانًا بنفسها -هذه الحياة التي تحتاج إلى النسيان- بتدمير هذا النسيان في بعض الأوقات. يتوجب إذن أن يتضح لنا أن وجود شيءٍ ما -مثلاً وجود امتياز أو طائفة أو أسرة ملكية- أمر غير عادل، وأن هذا الشيء يستحق الزوال. وإذا ما نظرنا نقديًّا إلى ماضي هذا الشيء فإننا سنقطعه بالسكين من جذوره، ونضرب صفحًا عن كل أشكال التقديس، وهو لعمري التطور الخطير دومًا، وهو خطر يُحدق بالحياة نفسها. إن البشر والحقب التي تخدم الحياة عبر محاكمتها وتدميرها الماضي هما في الآن نفسه خطر، ومعرضان للخطر؛ ذلك أنه في الوقت الذي نمثل فيه حصيلة للأجيال السابقة فإن ذلك يعني أننا في الآن نفسه نتيجة لانحرافات هذه الأجيال ورغباتها وأخطائها، بل لجرائمها، ويصعب علينا التحرر كليًّا من هذا الإرث، وحتى إذا حكمنا على تلك الانحرافات واعتبرناها لاغيةً، فإننا لا نُلغي عبر ذلك حقيقة أننا ننحدر منها، بل في أحسن الأحوال نصل إلى صراع بين طبيعتنا المتوارثة ومعرفتنا، ولربما أيضًا إلى صراع بين تنشئة جديدة وصارمة وما تلقيناه عبر التربية والولادة؛ فنزرع في داخلنا عادةً جديدةً وغريزةً جديدةً وطبيعةً ثانيةً، بشكل يدفع بالطبيعة الأولى إلى الاندحار.

إن محاولتنا اختيار ماضٍ نطلب الانتساب إليه بشكل بعدي -ضدًّا على الماضي الذي ننحدر منه- هي محاولة يتربص بها الخطر دومًا؛ لأنه من الصعب تعيين حدود في عملية نفي الماضي، ولأن الطبيعة الثانية هي في أغلب الأحيان أضعف من الأولى، وفي أغلب الأحيان لا نتجاوز معرفتنا بما هو جيد لنا إلى تحقيقه؛ لأننا نعرف أيضًا ما هو أفضل لنا دون قدرتنا على القيام به. ولكن على الرغم من ذلك يتحقق لنا النجاح هنا وهنالك، بل يجد أولئك المكافحون الذين يستخدمون التاريخ النقدي من أجل الحياة عزاءً عجيبًا، وأعني بذلك معرفة أن تلك الطبيعة الأولى كانت في زمنٍ ما طبيعةً ثانيةً، وأن كل طبيعة ثانية بعد انتصارها تتحول إلى طبيعة أولى.

4

تلكم هي الخدمات التي يمكن للدراسات التاريخية أن تقدمها للحياة، فكل إنسان وكل شعب يحتاج حسب الأهداف التي رسمها لنفسه إلى قواه وإلى معرفة معينة بالماضي، سواءٌ تلك المتعلقة بالتاريخ الأثري والعادياتي والنقدي، ولكنه يحتاج إلى ذلك، لا كمجموعة من المفكرين من أصحاب الأفكار المحضة الذين يكتفون بالتفرج على الحياة، ولا كأفراد أيضًا لا تسد رمقهم سوى المعرفة، حتى أضحت مراكمة المعارف هدفهم ذاته، ولكن دائمًا لأجل الحياة نفسها، وكنتيجة لذلك في ظل السيطرة والقيادة العليا لهذه الحياة. تلكم هي العلاقة الطبيعية لحقبة ولحضارة ولشعب بالتاريخ، وهي علاقة تسبب بها الجوع، ويجري تنظيمها وفقًا لدرجة الحاجات، وتسيطر عليها القوة الكامنة بداخلها. إننا لا نرغب في معرفة الماضي في كل العصور إلا حين تكون في خدمة الماضي والحاضر، وتنعدم تلك الرغبة حين تعمد إلى إضعاف الحاضر، أو حين تعمد إلى اقتلاع الجذور الحيّة للمستقبل. كل هذا بسيط وبديهي مثل الحقيقة، ومُقنع بشكل مباشر حتى لذلك الذي لا يحتاج أن نقدم له استدلالاً تاريخيًّا.

والآن لنلقِ نظرة سريعة على عصرنا! نجدنا نشعر بالخوف ونهرب إلى الخلف. ماذا جرى لكل ذلك الوضوح، ولكل تلك الطبيعة والنقاء اللذين طبعا العلاقة القائمة بين الحياة والتاريخ؟ وتقفز المشكلة إلى أعيننا في اضطراب ومبالغة وقلق، ترى، هل يكمن الخطأ فينا نحن المتأملين؟ أم إن شكل العلاقة بين الحياة والتاريخ قد تغيّر؛ وذلك لأن كوكبًا معاديًا تسلّل إلى هذه العلاقة؟ لكن ليُظهر آخرون أننا نظرنا إلى الأمور بشكل خاطئ، فلقد أردنا أن نقول ما اعتقدنا أننا نراه، وفي الواقع فإن كوكبًا جديدًا قد ظهر في هذه العلاقة، وهو كوكب مضيء وممتع، إنه العلم، أو هو المطالبة بضرورة أن يتحول التاريخ إلى علم. والآن لم تعد الحياة وحدها المسيطرة، ووحدها من يكبح المعرفة بالماضي، اقتُلعت كل الحدود، وكل ما وُجد في الماضي

ينهار فوق الإنسان. إن وجهات النظر ترجع إلى الماضي، وبشكل لا نهائي، وتعود إلى كل مكان يحدثها عن مصير معين، ولم يسبق لجيل أن عاش مثل هذا المشهد الذي لا يمكن أن تحيط به عين، والذي يسلط عليه الضوء اليوم علم المصير الكوني، أي علم التاريخ، وطبعًا فإنه يفعل ذلك وهو يحمل شعارًا خطيرًا يقول: إن الحُكم إلا للحقيقة فقط، ولو استدعى ذلك أن تندحر الحياة (fiat veritas pereat vita).

لنتخيل الآن هذه العملية العقلية التي تحدث من خلال ذلك بداخل روح الإنسان المعاصر. إن العلم التاريخي يتدفق -من جديد- من ينابيع لا تنضب، وتحتشد الأشياء الغريبة وغير المنظمة بعضها بقرب بعضٍ، وتفتح الذاكرة كل أبوابها، ومع ذلك تظل غير مفتوحة بما فيه الكفاية، وتبذل الطبيعة جهدًا جبارًا لتتمكن من استقبال هؤلاء الضيوف الغرباء وتنظيمهم والتعبير عن احترامها لهم. ولكن الصراع يحتدم بينهم، حتى إنه يبدو من الضروري إخضاعهم والتغلب عليهم كلّهم، حتى لا يعصف بنا صراعهم. إن التعوّد على نظام هذا البيت الذي تسوده الفوضى والعواصف والصراعات سيتحول رويدًا رويدًا إلى طبيعة ثانية، وذلك رغم أنه من غير المشكوك فيه أن هذه الطبيعة الثانية أكثر ضعفًا وقلقًا، وبكل معنى الكلمة أكثر سقمًا من الأولى. ويحمل الإنسان المعاصر في النهاية معه كميةً هائلةً من أحجار العلم التي تتمنع على الهضم، والتي حين تسنح لها الفرصة تقرقر بانتظام في البطن كما يُقال في الحكاية، وعبر هذه القرقرة تفصح عن الخصلة الأكثر التصاقًا بالإنسان المعاصر، وأعني بذلك التضاد الغريب بين داخل لا يتوافق مع خارج، وخارج لا يتوافق مع داخل، وهو تضادٌّ لم تعرفه الشعوب القديمة. إن المعرفة التي يتم تناولها في جشع ودون شعور بالجوع إليها، بل التي يتم تناولها رغم غياب الحاجة إليها. إن مثل هذه المعرفة لن تعمل كمُحفز إلى الحياة، بل إنها ستظل مُختبئةً في نوع من العالم الداخلي، تحكمه الفوضى، ذلك العالم الذي ينعته الإنسان المعاصر في اعتزاز غريب بـ"الداخل" الذي يميزه. أحيانًا نقول: إننا نمتلك المضمون، ولكن ما ينقصنا

هو الشكل. لكن لدى كلِّ ما هو حي فالأمر يتعلق هنا بتضادٍّ غير لائق، فثقافتنا[1] المعاصرة ليست شيئًا حيًّا؛ لأنه لا يمكن فهمها ألبتة في غياب هذا التضاد. إن هذا يعني أنها ليست ثقافةً حقيقيةً، بل مجرد نوع من العلم بالثقافة، فهي تظل حبيسة فكرة الثقافة وإحساس الثقافة، دون أن تكون هناك عزيمة ثقافية. وفي المقابل ما هو بالفعل بمنزلة الحافز، وما يكشف عن نفسه باعتباره فعلاً لا يعني غالبًا ما هو أكثر من اتفاقية غير مبالية، وتقليد بئيس أو حتى مجرد وجه مشوّه. وفي داخل الإنسان يكمن ذلك الإحساس الذي يُذكرنا بإحساس الأفعى التي التهمت كل الأرانب، لتتمدد بعدها في صمت تحت أشعة الشمس متجنبةً إتيانَ أي حركة ليست بالضرورية. إنها الثقافة الحقيقية، وكل ما يمر من هنا يأمل شيئًا واحدًا: ألا تنهار هذه الثقافة بسبب عُسر الهضم. وإذا ما تخيلنا مثلاً رجلاً يونانيًّا يتأمل هذا النوع من الثقافة فإنه سينتبه إلى أنه فيها يتعلّق بالإنسان المعاصر، فإن كلمة "مثقف" و"مثقف تاريخيًّا" سيّان، وأنه لا اختلاف بينهما سوى ذلك المرتبط بعدد الكلمات. أما إذا عمد إلى التعبير عن فكرته، التي تقول إنه يمكن للإنسان مثلاً أن يكون مثقفًا دون أن يمتلك ألبتة ثقافةً تاريخيةً، سنعتقد أننا لم نسمع ما قيل بشكل صحيح، وسنهز رأسنا في دهشة. لقد استطاع هذا الشعب الصغير المعروف الذي ينتمي إلى ماضٍ بعيد -أريد أن أقول: الشعب اليوناني- أن يحافظ في عناد في مرحلة قوته الكبرى على معنى غير تاريخيّ. وإذا ما تمكّن رجل من عصرنا من العودة بفعل السحر إلى تلك الحقبة، فمن المحتمل أن يجد اليونانيين مغرقين في "الجهل"، وهو في الحقيقة سيكشف عبر ذلك -وفي ظل تهكم الجميع- عن سر الثقافة المعاصرة الذي تمت حمايته بشكل جيد؛ ذلك أننا كمعاصرين لا نمتلك شيئًا انطلاقًا من أنفسنا، بل عبر امتلائنا فقط عن آخرنا

---

1 نستعمل في ترجمتنا المفهوم الألماني (بيلدونغ bildung) كلمة ثقافة، رغم عدم دقة الترجمة؛ وذلك لأن مفهوم البيلدونغ يتمتع بخصوصية ألمانية لا أعرف مقابلًا لها في اللغة العربية. (المترجم).

بالأزمنة الغريبة، والعادات والفنون والفلسفات والأديان والمعارف، نصبح شيئًا يستحق الانتباه، أي موسوعات متنقلة؛ ذلك أنه بهذه الطريقة لربما سيكلمنا يونانيّ عجوز قُذف به إلى زمننا، لكن قيمة الموسوعة تكمن في مضمونها، وليست ألبتة فيما هو مكتوب على صفحة الغلاف أو في الغلاف أو في طريقة تجليدها. إن مجموع الثقافة المعاصرة هو جوهريًّا داخلي، أما خارجيًّا فقد طبع حافظ الكتب شيئًا من هذا النوع "دليل الثقافة الداخلية للبرابرة الخارجيين". إن هذا التضادَّ بين الداخل والخارج يجعل الخارج أكثر بربرية ممّا أمكنه أن يكون لو تعلق الأمر بشعب فظّ، يطلب انطلاقًا من ذاته إشباع حاجاته الوحشية؛ إذ ما الوسائل التي تتوفر في الطبيعة الإنسانية حتى تسيطر على ما يفرض عليها بوفرة؟ على هذه الوسيلة الوحيدة التي تتمثل في القبول بها وبسهولة، وبعدها تضعها جانبًا قبل أن تعمد إلى طردها في أسرع وقت ممكن. ومن هنا تولد تلك العادة التي تجعلنا لا نأخذ بجديّةٍ الأشياءَ الحقيقية، ومن هنا تولد "الشخصية الضعيفة"، التي بسببها لا يخلّف ما هو واقعي وما هو قائم سوى انطباعٍ ضعيفٍ، لنصبح في النهاية أكثر تسامحًا وكسلاً في التعامل مع الأشياء الخارجية، ونوسع الفجوة المقلقة بين المضمون والشكل إلى حد فقدان الإحساس بالبربرية، طالما أنه يتم توتير الذاكرة دائمًا من جديد، وطالما أن الأشياء الجديدة لا تتوقف عن التدفق، تلك التي تستحق أن نعرفها، والتي يمكننا أن نرتبها باهتمام داخل هذه الذاكرة.

إن ثقافة شعب -وفي تعارض مع هذه البربرية- قد تم تعريفها مرة -وعن حقٍّ كما يبدو لي- مثل وحدة للأسلوب الفني في كل التمظهرات الحيوية لهذا الشعب، ولا يتوجب تأويل هذا التعريف بشكل خاطئ، كما لو أن الأمر يتعلق بتضاد بين البربرية والأسلوب الجميل. إن الشعب الذي نُسبغ عليه صفة الحضارة يتوجب أن يكون -وفي كل واقع- واحدًا وحيًّا، ولا يتوجب ألبتة أن يقسم في بؤسٍ ثقافتَه إلى داخل وخارج، ومضمون وشكل. ومن يريد أن يصل إلى ثقافة شعب وأن

يدعمها فعليه أن يهدف إلى هذه الوحدة السامية ويدعمها، ويعمل على تدمير هذه الثقافة المعاصرة لمصلحة ثقافة حقيقية، كما أنه يجرؤ على التفكير في كيفية استعادة صحة شعب دمرتها هذه الدراسات التاريخية، وكيف يجد هذا الشعب من جديد غرائزه وصدقه.

أريد الآن بالفعل أن أتحدث عنّا -نحن ألمان هذا العصر- الذين يعانون أكثر من أي شعب آخر من ضعف الشخصية، ومن التناقض بين الشكل والمضمون. إن الشكل يمثل لنا -نحن الألمان- نوعًا من العُرف، أومغالطةً وتصنُّعًا، ولذلك السبب إن لم نكرهه فإننا في كل الأحوال لا نحبه، بل سيكون أصح أن نقول: إننا نشعر بخوف غير عادي من كلمة عُرف، وبالخوف أيضًا أمام قضية العُرف. وفي ظل هذا الخوف يغادر الألماني مدرسة الفرنسيين[1]؛ ذلك أنه يريد أن يكون طبيعيًّا وعبر ذلك أن يكون ألمانيًّا، لكن يبدو أنه أخطأ تقدير هذه "عبر ذلك"، وعند هربه من مدرسة العُرف سيتجه إلى حيث يرغب بذلك، وبالطريقة التي يريدها مُقلدًا في إهمال وشبه خرف ما كان يُقلده في الماضي بدقة، وغالبًا في سعادة. إننا نعيش اليوم بالنظر إلى العصور الخالية دائمًا وفقًا لعُرف فرنسي مُهمل وخاطئ، ويظهر ذلك سواءً أمشينا أم توقفنا أم تجاذبنا أطراف الحديث، وكما تُبين ذلك طريقة لباسنا وسكننا. وفي اعتقادنا أننا نعود إلى الطبيعي اخترنا اللامبالاة والراحة وأقل ما يمكن من مجاهدة النفس. وإذا تجوّلنا في مدينة ألمانية فإن كل الأعراف التي نوازنها بالصالة القومية للمدن الأجنبية ستُعبر عن نفسها بشكل سلبيّ؛ إذ يبدو كل شيء عديم اللون باليًا منقولاً بشكل سيّئ مهملاً، وكلٌّ يتصرف حسب هواه، ولكن ليس حسب هوى قوي وغني بالأفكار، بل حسب القوانين التي يفرضها الاندفاع العام، ومعه الإدمان العام على الراحة. إن اختراع لباس لا يثير الصداع، والذي

1 يعني نيتشه بذلك المدرسة الفرنسية الكلاسيكية في القرنين السادس عشر والسابع عشر، التي طبعتها صرامة من حيث الشكل. (المترجم).

يمكن ارتداؤه دون ضياع وقت؛ أي لباس مأخوذ عن الأجانب وتم تقليده بأكثر ما يمكن من اللامبالاة، هذا هو ما يسارع الألمان لتسميته المساهمة في الزي الجرماني، ويرفضون في تهكم معنى الشكل؛ لأنهم يملكون معنى المضمون، أليسوا هم إذن الشعب الذي اشتهر بحياته الداخلية[1].

لكن هناك خطر يُحدق بهذه الحياة الداخلية، إن المضمون نفسه الذي يفترض أنه لا يمكن رؤيته من الخارج يمكنه أحيانًا أن يختفي دون أن يترك أثرًا، ولن ننتبه في الخارج إليه ولا إلى واقع أن هذا المضمون لم يوجد ألبتة. وعلى كل حال لنتخيل أن الشعب الألماني بعيدٌ ما أمكن عن هذا الخطر. إن الغريب لن يجانب الحق إلى حد كبير حين يأخذ علينا أن وجودنا الداخلي غاية في الضعف والفوضى حتى يتمكن من التأثير في الخارج، وليتخذ شكلاً من الأشكال، ويمكن لهذا الكائن الداخلي أن يمتلك فيها ندر درجةً من الحساسية، وأن يبدو جديًّا قويًّا حميميًّا باعثًا على الثقة، ولربما أغنى من روح الشعوب الأخرى، لكنه يظل كمجموعٍ ضعيفًا؛ لأن هذا المجموع لا يستطيع أن يلُف الألياف الجميلة في عقدة قوية، بحيث إن الفعل المرئي لا يعبّر عن فعل جماعي، ولا يمثل التعبير العفوي عن هذا الكائن الداخلي، بل هو عكس ذلك، ليس سوى محاولة خجولٍ وخامة لجزءٍ ما يريد لنفسه أن يبدو كما لو أنه يعبر عن الكلّ. ولهذا ليس ممكنًا أن نحكم على الألماني بعد قيامه بفعلٍ ما ألبتة، وهو يظل كفرد -حتى بعد هذا الفعل- مستترًا بشكل كامل. يتوجب علينا أن نقيسه وفقًا

---

1 ارتأيت ترجمة (Innerlichkeit) بالحياة الداخلية، ويفضل ترجمتها فلسفيًّا بالحياة الداخلية للذات، أي مجموع الأفكار والعواطف وعمليات الوعي التي تعيشها الذات داخليًّا في مقابل العالم الذي يقع خارجها. ويشير نيتشه هنا إلى الوصف الذي يطلق على الألمان، والذي يعني انسحاب الذات من العالم، ولكن أيضًا الحال المعنوية الرزينة، وهو ما يعبر عنه في الأدبيات المختلفة بالحياة الداخلية للألماني (Deutsche Innerlichkeit)، والتي كان نيتشه أول الساخرين منها. لكن -وعلى الرغم من ذلك- يقدم هذا المفهوم مدخلاً لدراسة العقل الألماني بشكل قد لا يقدمه أي مفهوم آخر. (المترجم).

لأفكاره وعواطفه، وهو يعبر عنها الآن في كتبه، لكن هذه الكتب نفسها في الأوقات الأخيرة هي ما يثير الشك حول ما إذا كانت تلك الحياة الداخلية للألماني ما تزال قابعة في معبدها الصغير الذي لا تطوله يد. ولعمري كم سيكون أمرًا مرعبًا أن نفكر في إمكانية اختفاء هذا الداخل يومًا، وألا يظل سوى الخارج، هذا الخارج المتكبر الأخرق والكسول في ذلّة كعلامة للألماني، ولن يكون أقلّ رعبًا إذا ما تم تزييف هذه الحياة الداخلية وصباغتها وإخفاء معالمها بشكل لا يسمح لنا برؤية ذلك، لتتحول إلى ممثلة أو إلى شيء أسوأ من ذلك، وهو ما يعتقده غريلبارسر (Grillparzer)[1] مثلاً، إذ يقف جانبًا متأملاً في صمت انطلاقًا من تجاربه الدرامية والمسرحية. يقول: "إننا نحس عبر التجريد". ويردف متابعًا: "وأصبحنا نجهل إلى حد كبير كيف يعبر الإحساس عن نفسه عند معاصرينا، إننا نتركه يقوم بقفزات لم يعد اليوم متعودًا على القيام بها. إن شكسبير قد أفسدنا نحن الحديثين". إن هذه حال فرديّة، ولربما تم تعميمها في تسرّع، ولكن كم سيكون أمرًا مرعبًا مثلُ هذا التعميم إذا ما فرضت نفسها هذه الحالات الفردية على المراقب. أيُّ يأسٍ يسكن هذه الجملة: "نحن الألمان نحس عبر التجريد"؟ كلنا أفسدتنا الدراسات التاريخية، إنها جملة تقتلع كل أمل في قيام ثقافة قومية من جذوره؛ ذلك أن كُل أمل من هذا القبيل ينمو من الاعتقاد بصحة الإحساس الألماني وطابعه المباشر، ومن الاعتقاد بسلامة الحياة الداخلية، فما الذي يتوجب علينا أن نأمله ونعتقده إذا كان نبع الاعتقاد والأمل مُعكرًا، وإذا ما تعلمت الحياة الداخلية القيام بقفزات، وتعلمت الرقص والتعبير عن نفسها عبر التجريد والحساب، لتنتهي إلى أن تفقد نفسها تدريجيًا. وكيف يمكن لعقل عظيم ومُنتج أن يتحمل الحياة بين ظهراني شعب لم يعد متأكدًا من وحدة حياته الداخلية، والذي تجده منقسمًا إلى بشر متعلمين، ولكن حياتهم الداخلية مُشوّهة وفاسدة، وآخرين

جُهّال بحياة داخلية لا قبل لهم بالوصول إليها؟ وكيف يمكنه تحمّل ذلك إذا ما تعرضت وحدة إحساس الشعب للضياع، وإذا ما تم تزييف الإحساس وتشويهه حتى لدى ذلك القسم المُتعلم من الشعب؟ أجل، قد يكون حكم الفرد وذوقه قد أصبحا أكثر لطفًا وسموًّا، لكن ذلك لا يقدم له تعويضًا عمّا فقده. بل إنه يعذبه؛ لأنه لم يعد بإمكانه التوجّه بالكلام إلا لطائفة معينة، في حين لم تعد هناك ضرورة إليه داخل شعبه، لربما يفضّل أن يدفن الآن كنزه؛ لأنه يشعر بالقرف من أن يجد نفسه قد أصبحت تقوده في ادعاء طائفة معينة، في حين أن قلبه يشعر بالشفقة على الجميع. إن غريزة الشعب لا تخفى للقائه، ولن يفيده في شيء أن يمد يديه إليها في حنين، ما الذي تبقى لديه سوى أن يُوجه حقده المتقد ضد هذه القيود، وضد هذه العقابيل التي تزخر بها التربية المزعومة التي يتلقاها شعبه، وحتى يتمكن من أن يصدر حكمه مثل قاضٍ -على الأقل- على ما يمثل لديه -ككائن حيٍّ وصانع للحياة- الدمارَ والمهانةَ؟ وهكذا يستبدل اللذة الإلهية في الخلق وتقديم يد المساعدة بالفهم العميق لمصيره، ويُنهي حياته مثل عالم متوحد وحكيم مُتخم، ولعمري إنه المشهد الأكثر إيلامًا الذي يمكننا رؤيته. ومن يستطيع رؤيته سيتعرف الواجبَ المقدس الذي يفرض نفسه، وسيقول لنفسه إنه يتوجب العثور على وسيلة لإعادة هذه الوحدة السامية في طبيعة الشعب وروحه، ويتوجب على ذلك الشرخ بين الداخل والخارج أن يختفي من جديد تحت ضربات مطرقة الحاجة. إلى أيّ وسيلة عليه أن يلجأ؟ وما الذي تبقّى له إذن سوى معرفته العميقة؟ يتوجب عليه أن يُعبر عمّا فهمه، أن يُطوره وينشره بملءِ يديه مؤملاً أن يزرع حاجة جديدة، وأن ينبع عن هذه الحاجة القوية فعلٌ قويٌّ يومًا. وحتى لا أترك شكًّا حول ما أعنيه بذلك البؤس والحاجة والمعرفة، أؤكد هنا أن ما نطمح في حماس إلى تحقيقه في هذا المعنى المُتسامي هو الوحدة الألمانية، وليس مجرد وحدة سياسية، بل حدة الروح والحياة الألمانيين، بعد تدمير التعارض القائم بين الشكل والمضمون، وبين الحياة الداخلية والعُرف.

5

تظهر لي خطورة إفراط حقبةٍ ما في استهلاك الدراسات التاريخية وعدائها للحياة من جوانب خمسة، فهذا الإفراط يخلق التعارض بين حياة داخلية وعالم خارجي، عاملاً عبر ذلك على إضعاف الشخصية. كما إن هذا الإفراط في الدراسات التاريخية هو المسؤول عن ظهور الوهم لدى حقبةٍ ما باعتبارها من يملك هذه الفضيلة الأكثر ندرة -أي العدالة- أكثر من أي حقبة أخرى. إن هذا الإفراط يُقلق أيضًا غرائز الشعب، ويحُول دون أن يبلغ الفرد أو الشعب رشدَه، كما أنه يزرع الاعتقاد المُضرّ دومًا بقدم البشرية، أي بفكرة أننا كائنات مُتأخرة ومُقلدة، وينمو بسبب هذا الإفراط في حقبة معينة مزاجٌ خطير يتمثل في السخرية من الذات، ليتطور إلى ما هو أخطر من ذلك، وأعني الكلبية التي تتجه فيها الحياة دائمًا نحو ممارسة ذكية وأنانية، والتي عبرها يتم شلّ قوى الحياة وفي النهاية تدميرُها.

لنعد الآن إلى فكرتنا الأولى: الإنسان الحديث يعاني من ضعف الشخصية، ومثلما حدث مع الروماني في عصر القياصرة الذي أضحى معاديًا لروما -بالنظر إلى الأرض التي كانت في خدمته- ويفقد نفسه أمام التأثيرات الأجنبية، ويُصيبه التشوّه في وسط هذا الكرنفال الكوسموبوليتي للآلهة والأعراف والفنون، سيحدث مع الإنسان الحديث، والذي -عبر أساتذته في فن التاريخ- سيجد نفسه باستمرار في حفل معرض كوني. لقد تحول إلى مشاهد مستمتع وتائه، وتم نقله إلى وضع يصعُب حتى على الحروب والثورات الكبرى للحظة أن تُغيره، فلا تضع حربٌ أوزارها حتى يتم تحويلها إلى ورق مطبوع من مئة ألف نسخة، ويتحول مباشرة إلى وسيلة جديدة لتحفيز الحلقوم المتعب للإنسان المهووس بالتاريخ، ويبدو تقريبًا من المستحيل أن يتم خلق نغمة قوية ومكتملة حتى عبر الضرب بقوة على الحبال؛ لأنها مباشرة تتلاشى من جديد، وفي اللحظة التالية ترن تاريخيًّا في نعومة بشكل متطاير وبلا قوة. ومن وجهة نظر أخلاقية يمكنني أن أقول لكم إنكم لا تنجحون في

الإمساك بالجليل، وأفعالكم أشبه بضربات فُجائية أكثرَ منها بضربات رعدٍ متوالية لتحققوا ما هو أكثر عظمةً وسُموًّا، ولكن على الرغم من ذلك فأفعالكم ستسقط في مملكة الأموات دون أن يصدر عنها صوت؛ ذلك لأن الفن يهرب حين تحتمي أفعالكم فورًا بسقف الدراسات التاريخية، ومن يريد أن يفهم ويحسب ويُؤول في اللحظة التي يتوجب فيها على عاطفته أن تمسك باللامفهوم مثل شيء جليل يمكن أن نسميه عاقلاً، ولكن بالمعنى الذي يتحدث به شيلر عن ملكة فهم العقلاء فقط، إنه لا يرى بعض الأشياء التي بمقدور الطفل رؤيتها، ولا يسمع بعض الأشياء التي بمستطاع الطفل سماعها، وهذه الأشياء هي بالضبط ما يمتلك أهميةً قصوى، ولأنه لا يفهمها فإن ملكة فهمه أكثر طفولية من تلك التي يمتلكها الطفل، وأكثر سُخفًا من السخافة نفسها رغم كل التجاعيد الماكرة المرتسمة على وجهه، وموهبة أصابعه في فك ما هو أكثر اشتباكًا، يكمن سبب ذلك في أنه دمّر غريزته وضيّعها، وهكذا لم يعد بإمكانه الثقة بـ"الحيوان الإلهي"، ويرمي بنفسه إلى الحرية حين ينقلب فهمه، وحين يمرّ الطريق عبر الصحراء، وهكذا يصبح الفرد متشككًا ومترددًا، ولا يمكنه الثقة بحكمه، سيغرق في نفسه، في حياته الداخلية، وهو ما يعني أنه سيستغرق في تأمل الأشياء المتراكمة لكل ما تعلمه، والتي لا يمكنها التأثير في الخارج، وتلك الثقافة التي يمكنها أن تصير حياة. وإذا ما نظرنا إلى الخارج مرة فإننا سنرى أن طرد الدراسات التاريخية للغرائز قد صنع من البشر كائناتٍ مجردة[1] ومحض خيالات، ولا أحد يستطيع أن يكشف عن شخصه، بل تجدهم كلهم يرتدون قناع الرجل المتعلم العالم الشاعر السياسي، وإذا ما هاجمنا هذه الأقنعة والوهم القائل إنهم يأخذون الأمور بجدية، وإن الأمر لا يتعلق لديهم بلعبة عرائس، فإننا سنكتشف فجأة أننا لا نحمل في أيدينا سوى قطعِ قماش بالية وخرق مبرقشة، ولهذا يتوجب علينا ألا ننخدع بهم بعد اليوم، وأن نطالبهم بخلع أقنعتهم، أو بأن يكونوا كما يظهرون، فالإنسان

---

1 يستعمل نيتشه الكلمة (abstractis) اللاتينية في هذا السياق، والتي تعني أولئك الذين ابتعدوا عن الحياة، أو تلك الكائنات النظرية التي تعيش خارج الواقع. (المترجم).

الجديّ في الأصل لا يتوجب أن يتحول إلى دون كيشوت؛ لأن لديه أشياءَ أهم يقوم بها عوضًا عن الدخول في صراع مع هذه الوقائع المزعومة[1]. وفي كلّ الحالات يتوجب أن يُمعن نظره في كل قناعٍ يبصر به ويصرخ: توقف! من هُنا. ويخلع القناع عن صاحبه. يتوجب علينا أن نفكر أن التاريخ كان يشجع البشر خصوصًا على أن يكونوا صادقين، بل حتى لو تعلق الأمر بأن يكونوا صادقين كمجانين، وكان ذلك دائمًا تأثيره، لكن لم يعد الأمر كذلك الآن، فالثقافة التاريخية واللباس البورجوازي يحكمان في الآن نفسه، في حين أنه لم يجرِ يومًا الحديث بهذه القوة عن "الشخصية الحرّة"، بل إننا لا نرى حتى شخصيات، فكيف سنرى شخصيات حرة، مجرد بشر كونيين يغطيهم الخوف؟ لقد انزوى الفرد إلى حياته الداخلية، وفي الخارج لا نلحظ شيئًا منه ألبتة، ما يدفعنا للشك حول ما إذا كان بالإمكان وجود أسباب بدون نتائج، أم إنه من الضروري أن يتوفر لدينا جيل من المخصيين لأجل حراسة الحريم الكوني للتاريخ؟ فلدى هؤلاء أن الموضوعية المحضة تعبّر بلا ريب عن نفسها في وجوههم، ويمكننا تقريبًا أن نعتقد بوجود مهمة تكمن في حراسة التاريخ حتى لا يخرج منه شيء آخر غير القصص وليس الأحداث، وهي مهمة تقوم على عرقلة تحول الشخصيات عبر التاريخ إلى شخصيات حرة، أي صادقة تجاه نفسها وتجاه الآخرين كلمة وفعلاً. وعبر هذا الصدق فقط يكشف العوز والبؤس الداخلي للإنسان المعاصر عن وجهه، وبدلاً عن ذلك العُرف وتلك المهزلة المتواريين في خوف يمكن إذن أن يعلن الفن والدين عن نفسيهما كظهيرين حقيقيين، حتى يخلقا معًا ثقافة جديدة تتوافق مع الحاجات الحقيقية للبشر، وليست مثل التربية العامّة الحالية التي تعلمنا كيف نكذب فقط على أنفسنا بخصوص هذه الحاجات، وتتحول عبر ذلك إلى كذبة حقيقية متحركة.

---

1 يلمح نيتشه هنا إلى قصة الطواحين الهوائية في رواية ميغيل دي سرفانتس (*Miguel de Cervantes*): دون كيخوتي دي لامانشا، التي صدرت أول مرة في عام 1615.

في أي وضعية غير طبيعية مصطنعة -ولا ريب شائنة- سقط العلم الأكثر صدقًا من بين كل العلوم؟ هذه الإلهة الصادقة والعارية التي نسميها الفلسفة! إنها تظل في مثل هذا العلم المحكوم بوحدة خارجية الحوارَ الداخليَّ للمشاء المتوحد، فريسةً بالصدفةِ للفرد، سرًّا في غرفة مخفية، أو ثرثرةً لا خطر منها بين أكاديميين هرمين وأطفال. لا أحد يجرؤ على تحقيق قانون الفلسفة من خلال نفسه، ولا أحد يعيش فلسفيًّا مع هذا الوفاء الفلسفي الرجولي الذي يرغم إنسانًا من العهد القديم -أينما كان وبغضّ النظر عمّا يفعل- أن يتصرف مثل رواقي إذا ما وعد يومًا بالبقاء وفيًّا للرواقية. وكل تفلسف معاصر هو سياسي وأمنِيّ، وقد تم حصره في مظهر عالم من طرف الحكومات والكنائس والأعراف وجبن البشر. إنه لا يتجاوز زفرة الندم كما لا يتجاوز معرفة الماضي. إن الفلسفة في ظل الثقافة التاريخية مجردة من الحقوق إذا ما سعت لأن تكون ما هو أكثر من علم بلا تأثير مكبوت في الداخل، ولو كان الإنسان المعاصر بشكل عامٍّ شجاعًا وصاحب عزيمة، ولو أنه في عداواته لم يكن مجرد كائن داخلي لمنع مثل هذه الفلسفة، لكنه يكتفي بتغطية عُريها في خجل. أجل، إننا نفكر ونكتب ونطبع ونتحدث ونعلم فلسفيًّا، وإلى هذا الحد فإن كل شيء تقريبًا مباح، لكن على مستوى الفعل في الحياة الأمر مختلف؛ فهناك شيء واحد فقط يظل مباحًا حين تكون كل الأشياء الأخرى غير ممكنة، وهذا ما تريده الثقافة التاريخية. يسأل أحدهم: هل ما زال هؤلاء بشرًا؟ ويتابع متسائلاً: أو لربما هم مجرد آلات تفكير وكتابة وكلام؟

لقد قال غوته يومًا عن شكسبير: "لا أحد احتقر اللباس المادي بالقدر الذي فعله شكسبير. إنه يعرف فعلاً وبشكل جيد اللباس الداخلي للبشر، وفي هذا الأمر يتشابه كل الناس. ويقال إنه صور الرومان بشكل ممتاز لكنني لا أرى ذلك؛ فالأمر يتعلق بشخصيات إنجليزية حقيقية فقط، لكنهم بالطبع بشر، وبشر بالفطرة، واللباس الوطني الروماني يناسبهم". لكني أتساءل هل يمكننا أن نقدم رجال الأدب عندنا،

رجالات الشعب، موظفينا، سياسيينا اليوم في لباسٍ روماني؟ لا أعتقد بإمكانية ذلك؛ لأنهم ليسوا ألبتة بشرًا، بل مجرد كتب تعليمية من لحم وعظم، وفي الآن نفسه تجريدات مُتعينة، وإذا صدف أن كانت لهم شخصية وطراز خاص بهم فإن ذلك يكمن في الأعماق، بحيث إنه لا يستطيع أن يعلن عن نفسه في وضح النهار، أمّا إذا توجّب أن يكونوا بشرًا فإنهم ليسوا كذلك إلا لدى ذلك الذي "يكشف على الكلى"[1]. لكنهم في أعيننا يمثلون شيئًا آخر، فهم ليسوا ألبتة بشرًا ولا آلهةً ولا حيوانات، وإنما هم كائنات بتكوين تاريخي، إنهم نتاج للبيلدونغ الذي تلقوه، صورة أو شكل دون مضمون يمكن الاستدلال عليه، ومع الأسف مجرد شكل خاطئ، وفوق ذلك أحادي. هكذا يتوجب فهم فكرتي واعتبارها وهي تقول: إنه لا يمكن تحمّل التاريخ إلا من طرف الشخصيات القوية، أمّا فيما يتعلق بالشخصيات الضعيفة فإنه يمسحها عن آخرها. إن الأمر يعود إلى أن التاريخ يربك الإحساس والحساسية إذا لم يكونا بالقوة الكافية التي تسمح لهما بالحكم على الماضي. إن ذاك الذي لا يجرؤ على الثقة بنفسه، ويسأل في اعتباطية التاريخَ النصيحةَ لشعوره: "كيف عليّ أن أحس هنا؟"، هذا الشخص بسبب خوفه سينتهي إلى أن يصبح كوميديًا، ويؤدّي دورًا -بل في أغلب الأحيان أدوارًا كثيرةً- ولهذا يؤديها كلها بشكل سيئ وسطحي. وشيئًا فشيئًا يختفي الانسجام بين الشخص ومجاله التاريخي، نرى أطفالاً طويلي اللسان يتعاملون مع الرومان كما لو أنهم من أمثالهم. إنهم ينبشون في بقايا الشعراء اليونان كما لو أن أمامهم جثثًا مستعدة للتشريح، وكما لو أنها كائنات مجردة من أي قيمة كما الحال مع نصوصهم الميتة. لنفترض مثلاً أن واحدًا منهم يهتم بالفيلسوف ديموقرطس، عندي رغبة دائمًا للتساؤل: ولم ديموقرطس؟ لم ليس هراقليطس أو فيلون أو بيكون أو ديكارت؟ وهكذا دواليك. وعلاوة على ذلك، لم بالضبط الاهتمام بفيلسوف؟ لم

---

1 يلمح نيتشه هنا إلى التصور الإنجيلي الذي يرى أن الرب وحده من يكشف عن قلب الإنسان ويعرف ما يدور بداخله.

ليس بشاعر أو خطيب؟ وأخيرًا لماذا إذن يوناني؟ لماذا ليس إنجليزيًّا؟ تركيًّا؟ أليس الماضي كبيرًا بما فيه الكفاية من أجل العثور على شيء لا يجعلكم تظهرون بمظهر مضحك؟ لكن يتوجب تكرار ما قلناه سابقًا: نحن أمام جيل من الخصيان؛ ذلك أنه لدى الخصيّ كل امرأة شبيهة بأخرى، فالمرأة ليست سوى امرأة، المرأة في ذاتها وما لا يمكنه ألبتة الحصول عليه. وهكذا فإنه غير ذي قيمة معرفة ما تفعلونه إذا ما ظلّ التاريخ محفوظًا "موضوعيًّا" بشكل جيد، أي من أولئك الذين لن يصنعوا بأنفسهم يومًا تاريخيًّا. وكما أن المؤنث الأبديّ لا يجذبكم ألبتة إليه فإنكم تجذبونه إليكم، ولأنكم بأنفسكم مجرد "محايدين" فإنكم تعتبرون التاريخ مثل شيء محايد. لكن لا يتوجب الاعتقاد بأني أطلب جديًّا موازنة التاريخ بالمؤنث الأبديّ، بل إني أريد علاوة على ذلك توضيح أني أنظر إلى التاريخ باعتباره مذكرًا أبديًّا. لكن عند الذين تلقوا "تكوينًا تاريخيًّا" لا يهمّ ما إذا كان التاريخ من هذا الجنس أو ذاك، فهم ذواتهم ليسوا بذكر ولا أنثى، بل إنهم ليسوا حتى بمخنثين، إنهم دائمًا وأبدًا مجرد محايدين، أو حتى نعبر عن ذلك بلغة عالمة: إنهم مجرد موضوعيين أبديين[1]، وإذا ما تم تحويل هذه الشخصيات بالطريقة الموضحة أعلاه إلى كائناتٍ أبدية بلا ذات، أو كما يقال: إلى موضوعية، فإننا لن نعثر على شيء يمكنه التأثير فيها. أجل، قد يحدث شيء خير أو عادل: فعل ما، شعر أو موسيقى، ولكن هذه الشخصيات التي تكوّنت في ظل الثقافة التاريخية تنظر مباشرة إلى ما وراء العمل لتسأل عن تاريخ الكاتب، وإذا كان هذا الكاتب قد أنتج أشياء كثيرة فعليه السماح بتفسير تطوره السابق والاتجاه المحتمل لتطوره المستقبلي، وسوف نضعه إلى جانب شخصيات أخرى حتى نعقد موازنات فيما يتعلق باختيار مادة كتابه، والطريقة التي تعامل بها معها. وبعد أن يتم تجزيء كل ذلك وتحليله، وبعد اجتراره ومراقبته سنطلب إعادة بناء الكل، وحتى

---

1 يعني نيتشه بذلك الموقف المجرد ظاهريًّا من الموقف الذاتي والمصلحة الخاصة، أي علم التاريخ المحايد الذي يحتكم إلى الأحداث المحضة فقط. (المترجم).

لو حدث شيء مدهش جدًّا، فإن جماعة المحايدين التاريخيين مستعدة دائمًا وعن بعد لمعرفة ما الذي يريد الكاتب قوله، وفي لحظات يدوي صدىً ولكن دائمًا في شكل "نقد"، رغم أنه قبل وقت قصير لم يفكر الناقد ألبتة حتى في الحلم في إمكانية الحدث، ولن ينتج ألبتة تأثيرٌ ما، ولكن دائمًا "نقد"، وهذا النقد نفسه لا ينتهي إلى تأثير ما، بل يتعرض هو من جديد للنقد، وهكذا تعودنا على اعتبار عدد كبير من الانتقادات أنها نوع من التأثير، وقليل منها أو لا شيء باعتباره فشلاً. وفي العمق فسواءٌ أكان هناك "تأثير" أم عدمه؛ فكل شيء يظل على ما كان عليه، إنهم يثرثرون لوقتٍ عن شيء جديد، ومرة أخرى عن شيء جديد ليفعلوا من خلال ذلك ما فعلوه دائمًا. إن الثقافة التاريخية لنقادنا لا تسمح ألبتة بالوصول إلى تأثير بالمعنى الحقيقي للكلمة، وأعني بذلك إلى تأثير في الحياة والفعل الإنسانيين، وعلى الكتابة السوداء يُطبقون مباشرة ورقهم النشاف، ويلطخون الرسم الأكثر رشاقةً بضربات فرشاتهم السميكة، والتي يتوجب النظر إليها كتصحيحات، لينتهي كل شيء عقب ذلك. ولا يتوقف قلمهم النقدي عن السيلان؛ لأنهم فقدوا كل سيطرة عليه، بل هو من أضحى يقودهم بدلاً من الانقياد ليمناهم. إن هذا القذف النقدي المفرط بالضبط -أي عجزهم عن السيطرة على أنفسهم- هو ما أسماه الرومان الإباحية[1]، وهو ما يفضح ضعف الشخصية المعاصرة.

6

لكن لنترك هذا الضعف جانبًا، ولنوجه أنظارنا إلى قوة طالما تفاخر بها الإنسان الحديث، ونحن نتساءل ما إذا كانت "موضوعيته" التاريخية المعروفة جدًّا تعطيه القوة لأن يعتبر نفسه قويًّا، أي عادلاً أكثر عدلاً من رجال الحقب الأخرى؟ وهل

1 تمتلك كلمة (Inpotentia) اللاتينية معنى العجز، ولكن أيضًا معنى الإباحية وسيطرة الغرائز على الإنسان، ويشير نيتشه هنا إلى المعنى الثاني. (المترجم).

صحيح أن هذه الموضوعية تجد أصلها في حاجة إلى عدالة أكثر كثافة وحياة؟ أم إنها -باعتبارها نتيجة لأسباب مغايرة للغاية- لا تفعل أكثر من إيهامنا بأن روح العدالة هي السبب الحقيقي لهذه النتيجة؟ وهل تقودنا لربما إلى حكم مسبق خطير؛ خطير لأنه يبالغ في الإطراء فيما يتعلق بموضوع فضائل الإنسان الحديث؟ لقد كان سقراط يعتبر أنه شر غير بعيد عن الجنون أن نتخيل امتلاكنا الفضيلة في حين أننا لا نمتلكها، وبالطبع فإن مثل هذا الوهم أخطر من الجنون النقيض، الذي يقوم على اعتقادنا بأننا نعاني من نقص أو عيبٍ ما، ذلك أنه بفضل هذا الجنون ربما يكون بعدُ ممكنًا أن نصبح أفضل، في حين أنه عبر الوهم الأول يصبح الإنسان أو الحقبة أكثر سوءًا يومًا بعد يوم، وهو ما يعني فيما يتعلق بحاضرنا أكثر ظلمًا.

وفي الحقيقة لا أحد يستحق إلى درجة كبيرة منّا التقدير إلا ذلك الذي يمتلك غريزة العدالة والقوة على تحقيقها. ذلك أنه في العدالة تتوحد وتسكن الفضائل الأكثر سموًّا وندرةً، كما في بحر عميق تصب فيه أنهار من كل الجهات؛ فيمتصها كلها بداخله. إن يد العادل المخوّل بافتتاح المحكمة لا ترتجف حين تمسك بالميزان، وفي صرامة ضد نفسه يضع ثقلاً فوق ثقل، وعينه تخفق حين ترتفع كفتا الميزان أو تنخفضان، وصوته ليس بالشديد ولا بالمنكسر حين يعلن الحكم، ولو كان شيطانًا باردًا للمعرفة سينشر من حوله جوًّا باردًا هو لجلالة فوق إنسانية ومرعبة، والتي يتوجب علينا أن نخافها وليس أن نقدرها، لكنه إنسان يحاول الارتقاء بنفسه من الشك المتساهل إلى اليقين الصارم، ومن اللطف المتسامح إلى صيغة الأمر: "يتوجب عليك"، ومن فضيلة الكرم النادرة إلى فضيلة العدالة الأكثر ندرة. إنه يشبه هذا الشيطان دون أن يكون في الأصل شيئًا آخر سوى رجل مسكين يُكفِّر في كل لحظة عن إنسانيته، ويقضم بشكل تراجيدي فضيلةً مستحيلةً. كل هذا يرفعه إلى علوٍّ منعزل، كما لو أنه يمثل المثال الأكثر قداسةً للنوع البشري؛ ذلك لأنه لا يريد الحقيقة ألبتة في شكل معرفة باردة دون عواقب، ولكن كقاضية تنظم وتعاقب، وليست

كملكية أنانية للفرد، ولكن كحقٍّ مقدس لخلع كل أحجار الحدود التي نصبها المُلاك الأنانيون. إنه يريد الحقيقة باختصار كمحكمة للإنسانية، وليست ألبتة كفريسة يمسك بها صياد واحد أو تخضع لرغبته. وحين يمتلك الحقيقي إرادة غير مشروطة أن يكون عادلاً سنقف على شيء عظيم في هذا التطلع الطائش إلى الحقيقة، والذي يتم تعظيمه في كل مكان. وكل هذه السلسلة من الغرائز المختلفة مثل الفضول، والخوف من الملل، والغيرة، والحسد، والزهو، والكلف باللعب والتي لا علاقة لها ألبتة بالحقيقة، ستتماهى مع ذلك التطلع إلى الحقيقة، والذي يضرب بجذوره في العدالة. هكذا يبدو العالم مليئًا بهؤلاء الذين "يخدمون الحياة"، ومع ذلك فإن فضيلة العدالة نادرة الوجود، ومعرفتها أكثر ندرةً، ودائمًا يتهددها حقد قاتل، في حين أن حشد الفضائل الظاهرية مقدس في كل الحقب التاريخية وواسع الانتشار.

قليلٌ من يخدمون الحقيقة؛ لأن القليل من يمتلكون الإرادة المحضة لكي يكونوا عادلين، بل حتى بين هؤلاء فإننا نجد مرة أخرى القليل ممّن امتلك القوة ليتمكن من أن يكون عادلاً؛ إذ لا يكفي بالتأكيد أن نملك الإرادة وحدها لذلك. والآلام المرعبة التي ضربت البشر هي نتيجة لغرائز العدالة التي تعدمها ملكة الحكم، ولهذا فإن الصالح العام لن يطالب إلا بشيء واحد، وهو نشر بذرة ملكة الحكم بأوسع ما يمكن حتى نتمكن من التمييز بين المتطرف والقاضي، والرغبة العمياء في أن يكون المرء قاضيًا، والقوة الواعية للحق في الحكم. لكن أين يا ترى نجد وسيلة لزرع ملكة الحكم؟ ولهذا فإن هؤلاء الناس حينما تتم مخاطبتهم في أمر الحقيقة والعدالة سيسيطر عليهم التردد دائمًا غير عارفين ما إذا كان من يحدثهم متطرفًا أو قاضيًا، ويتوجب لذلك السبب أن نسامحهم على احتفائهم ومباركتهم الخاصة لمن نصبوا أنفسهم "خدام الحقيقة"، والذين لا يمتلكون إرادة الحكم ولا قوته، والذين أخذوا على عاتقهم مهمة البحث عن المعرفة "المحضة التي لا تأثير لها"، أو –حتى نعبر عن ذلك بشكل أكثر دقة– عن الحقيقة التي لا تؤدي إلى شيء. هناك عدد من الحقائق

اللامبالية، وهناك المشاكل التي لا نحتاج لكي نحكم عليها بشكل صحيح إلى تجاوز أنفسنا أو التضحية بها. وفي هذا المجال اللامبالي والمجرد من الخطر سيكون لربما سهلاً على الإنسان أن يتحول إلى شيطان بارد للمعرفة، ولكن مع ذلك إذا حدث في أزمنة ملائمة أن تحولت أفواج كاملة من العلماء والباحثين إلى شياطين شبيهة بتلك التي تحدثنا عنها، فإنه سيظل مع الأسف ممكنًا أن تخلف هذه الأزمنة موعدَها مع العدالة العظيمة والصارمة، أي مع النواة الأكثر نبلاً لغريزة الحقيقة.

دعونا نتصور الآن الرجل الذي تلقّى تكوينًا تاريخيًّا، هل هو الرجل الأكثر عدلاً في زمنه؟ أجل، لقد طور في داخله نعومة العاطفة وانفعاليتها، بحيث إن لا شيء إنسانيًّا يظل بعيدًا عنه، فالأزمنة والشخصيات المختلفة تجعل قيثارته تصدر رنّات متقاربة. لقد تحوّل إلى صدىً سلبيّ، والذي عبر رنينه يوقظ أصداءً أخرى سلبية، إلى أن يمتلئ هواء حقبة بكاملها بمثل هذه الأصداء المتداخلة. لكن يبدو لي مع ذلك أننا لا نسمع ألبتة -إذا أمكنني الحديث بهذه الطريقة- سوى الرنّات العليا في النغمات الأصلية لهذه المعزوفة التاريخية، ولا يمكننا أن نخمن ما هو قوي في الأصل من خلال رنة الأوتار الرقيقة والحادة، وتوقظ الرنة الأصلية غالبًا الأفعال البشرية والأزمات والرعب، وهذه تهدهدنا وتصنع منا مستمتعين ليّنين، كما لو أنه تم تجهيز مزمارين لأداء سمفونية بطولية سيطرب لسماعها مدخنو الأفيون الحالمون. وعبر ذلك يمكننا أن ندرك ما الذي تعنيه لهؤلاء الذين تكوّنوا تاريخيًّا التطلعاتُ السامية للإنسان المعاصر نحو عدالة أكثر سموًّا ونقاءً، فمثل هذه الفضيلة مجردة من المجاملة، ولا تعرف العواطف المثيرة، إنها قاسية ومرعبة، ستكون لها درجة سفلى في سلم الفضائل إذا ما قسناها وفقًا لهذا السلم، وأعني الكرم الذي هو فضيلة بعض المؤرخين النادرين، فعدد كبير من بينهم لن يصل إلا إلى التسامح وإلى القبول بما لا يمكن نكرانه، إلى الترتيب الصحيح والتحسين اللطيف، مع القناعة الحكيمة بأن

الإنسان غير المجرب سيفسرها كفضيلة للعدالة إذا ما تمت رواية الماضي دون لهجة قاسية، ودون تعبير عن الحقد.

ولكن وحدها القوة السامية يمكنها أن تصدر حكمًا، والتي يتوجب عليها أن تتسامح مع الضعف إذا لم ترغب أن تتصنّع القوة، وأن تحول العدالة في هيئة المحكمة إلى مجرد ممثلة مسرحية، بل إنه مازال هناك صنف شنيع من المؤرخين، طبائع بارعة وصارمة وصادقة ولكن عقول ضيقة، وهنا تتوفر الإرادة الخيرة التي تسعى إلى العدالة، والخطاب العاطفي للقاضي. ولكن كل الأحكام خاطئة، وتقريبًا للسبب نفسه الذي يجعل أحكام هيئة المحلفين العاديين خاطئة، وهكذا يظهر لنا أن تكرار المواهب التاريخية أمر غير محتمل، وحتى نتجاهل تمامًا الأنانيين المقنعين والمتذيلين الذين في لعبهم للعبتهم الشريرة يظهرون كأنهم الأكثر موضوعية، كما سنتجاهل تمامًا الناس غير العاقلين، وأعني بذلك أولئك المؤرخين الذين يكتبون في يقين ساذج أن حقبتهم وتصوراتها العامة على حقٍّ أكثر من الحقب الأخرى، وأن الكتابة في توافق مع هذه الحقبة هي التعبير الأمثل عن العدالة. إنه اعتقاد نصادفه عند كل الأديان، وحين يتعلق الأمر بالدين فإنه لا يمكن أن نقول ما هو أكثر من ذلك. ويصف المؤرخون الساذجون قياس الآراء القديمة والأفعال القديمة بنظيراتها في الحاضر بالموضوعية، وهنا يجدون قاعدة كل الحقائق. إن عملهم يقوم على تكييف الماضي مع التفاهة الراهنة، وفي المقابل يسمون كل كتابة تاريخية لا تتبع التصورات العامة وكأنها قانون بالذاتية.

لكن في الوقت الذي نقدم فيه للموضوعية معناها الأكثر سموًّا ألا يتعلق الأمر بمجرد وهم فقط؟ تعني هذه الكلمة عند المؤرخ حالاً ذهنيةً ينظر فيها إلى الحدث التاريخي في دوافعه وعواقبه في نوع من الطهارة، بشكلٍ يمنع هذا الحدث من أن يكون له أي تأثير فيه. إننا نعني بذلك هذه الظاهرة الاستيتيقية التي يتأمل فيها الرسام صورته الداخلية، وقد تحرر من كل مصلحة شخصية، في وسط عاصفة

يحيط به البرق والرعد، أو فوق أمواج عاتية. إنه الغرق الكليّ في الأشياء. لكن من الوهم الاعتقاد بأن الصورة التي تظهر بها الأشياء بداخل مثل هذا الإنسان هي نفسها صورة هذه الأشياء في الواقع، أم هل يمكن أن تكون الأشياء في مثل هذه اللحظة مستنسخة بطريقةٍ ما من خلال نشاطها الخاص من كائن حيّ سلبي بشكل محض؟

إن الأمر يتعلق بأسطورة، والأكثر من ذلك بأسطورة سيّئة، بل إننا ننسى أن تلك اللحظة بالضبط هي لحظة الخلق الأكثر قوةً ونشاطًا في روح الفنان، إنها لحظة الخلق العليا، التي ستنتج عنها لوحة فنية حقيقية وليست تاريخية. إن تصوّر التاريخ من وجهة نظر موضوعية هو العمل الصامت للمؤلف المسرحي، وذلك عبر التفكير في كل التفاصيل، وتحويلها إلى كل، إذ يشترط عمله خضوع الأشياء لخطة موحدة، ما لم تكن تلك الخطة متوفرة أصلاً. وهكذا يحيط الإنسان بالماضي ويُهيمن عليه، وهكذا يعبر عن غريزته الفنية، وليس عن غريزة الحقيقة والعدالة. فالموضوعية والعدالة لا علاقة لأحدهما بالآخر. وبإمكاننا أن نتصور طريقة لكتابة التاريخ لا تضم بداخلها قطرة من الحقيقة الحيويّة العامة، ومع ذلك تتطلع بشكل كبير إلى امتلاك خاصية الموضوعية. أجل، إن غريل بارتسا يجرؤ على القول: "ما التاريخ إذن، إن لم يكن الطريقة التي يستقبل بها عقل الإنسان الأحداث التي تظل لديه غير قابلة للاختراق؟ الطريقة التي تعوض ما هو غير مفهوم بما هو مفهوم؟ الطريقة التي يقدم بها تصوراته عن غاية خارجية إلى كلٍّ لا يعرف لربما سوى غاية داخلية؟ والطريقة التي يعترف فيها بالصدفة، هناك حيث تفعل فعلها آلاف الأسباب الصغيرة؟

لكل إنسان غايته الخاصة بحيث تعدو آلاف الاتجاهات بعضها بجانب بعض في خطوط مستقيمة ومنحنية، فهي تتشابك أو تدعم أو يعرقل بعضها بعضًا، وهي تتحرك إلى الأمام والخلف، وهكذا تأخذ طابع الصدفة لتجعل من المستحيل

-بصرف النظر عن تأثير الظواهر الطبيعية- الاستدلال على ضرورة كاملة وعامة تقف خلف ما حدث.

إن نتيجة هذه النظرة "الموضوعية" إلى الأشياء ما هي إلا تسليط للضوء على هذه الضرورة. إنه شرط لا يمكنه أن يتخذ إلا شكلاً غريبًا إذا ما اعتبره المؤرخ عقيدة راسخة. إن نظرة شيلر واضحة فيما يتعلق بالطابع الذاتي والمطلق لهذه الفرضية، حين يقول عن المؤرخ: "وتبدأ ظاهرة بعد أخرى بالتملص من الحظ الأعمى، من الحرية التي لا تحكمها القواعد لتنظم نفسها في إطار كلٍّ منسجم، وهذا الكل الذي هو في واقع الأمر لا يوجد إلا في خياله". لكن كيف يتوجب علينا أن نفكر في زعم هذا المؤرخ الشهير، والذي يقدمه لنا في سذاجة وهو يتأرجح في تصنّع بين الحشو واللامعنى قائلاً: "إن كل نشاط إنساني يخضع لمجرى الأشياء القوي والجارف، والذي يتمنّع في الغالب عن الملاحظة"؟ في مثل هذه الجملة لا يشعر المرء بحكمة غامضة، ولكن بحماقة واضحة للعيان. إنها تشبه قولة هذا البستاني الذي تحدث عنه غوته: "يمكننا أن ندفع بالطبيعة لعمل شيءٍ ما، ولكن لا يمكننا إكراهها على ذلك". أو كما جاء في لافتة محل تجاري تحدث عنه سويفت (Swift)[1]: "هنا يمكنكم رؤية أكبر فيل في العالم باستثناء شيء واحد، وهو الفيل نفسه". فما التعارض القائم إذن بين نشاط الإنسان ومجرى الأشياء؟ يظهر لي عمومًا أن هؤلاء المؤرخين مثل ذاك الذي استشهدنا في السابق بجملة له، لا يعلموننا شيئًا كلّما جنحوا إلى التعميم، وهم عبر ذلك يدارون إحساسهم بالضعف. في العلوم الأخرى تعتبر التعميمات أهم شيء متى ما تضمنت قوانينَ، أما إذا ما تم اعتبار جمل مثل تلك التي سبق ذكرها كقانون فبإمكاننا أن نعترض ونقول: إن عمل المؤرخ في مثل هذه الحال لن يكون سوى ضياعٍ، ذلك أن ما يتبقى من مثل هذه الجمل بعد تصفيتها من غموضها

1 المقصود هنا هو جوناثان سويفت (1667-1745) الكاتب الإيرلندي الساخر، مؤلف **أسفار غوليفر**.

الذي تحدثنا عنه من قبل أمر معروف وتافه، فكل إنسان يمكنه تعرُّفه من خلال تجربته الضيقة، ولهذا السبب فمضايقة شعوب بكاملها بهذه التفاهات، وتضييع سنوات طويلة مجهدة في ذلك لا يعني أكثر ممّا نعرفه عن العلوم الطبيعية التي تراكم تجربة بعد تجربة، في حين أنّه كان بإمكانها استخلاص القانون منذ زمن من كنز تجاربها السابقة. وبرأي تسولنر فإن العلوم الطبيعية تعاني اليوم من هذا الإفراط اللامعقول في التجريب. وإذا كانت قيمة مسرحية لا تكمن إلا في الفكرة الأساسية والأخيرة فإن المسرحية نفسها لن تكون إلا منعطفًا طويلاً، وطريقًا صعبةً وملتويةً للوصول إلى هذا الهدف. وهكذا فإن معنى التاريخ لا يكمن في أفكاره العامة التي تمثل بمعنى من المعاني أزهاره وثماره، بل إن قيمته تكمن بالتحديد في إعادة كتابة موضوع معروف بشكل عقلاني، ولربما موضوع عادي نحن نردده يوميًّا؛ لنرتفع به إلى مستوى الرمز الشامل، حتى نسمح عبر ذلك بتخيّل عالم من العمق والقوة والجمال في الموضوع الأصلي.

ولكن من أجل الوصول إلى ذلك نحتاج إلى قوة فنية كبيرة، وإلى تجاوزٍ خلاق، وإلى تعمق حميميّ في المعطيات الاختبارية، وإلى تحسين للنماذج المعطاة. وفي الحقيقة إن ما نحتاج إليه هو الموضوعية، ولكن كخصلة إيجابية. لكن في أغلب الأوقات لا تكون الموضوعية إلا كلامًا فارغًا، فبدلاً من عين الفنان المتقدة داخليًّا والتي يخيم عليها هدوء معتم خارجيًّا لا نلمح إلا هدوءًا مصطنعًا تمامًا. كما إنه يتم التغطية على النقص في العاطفة والقوة الأخلاقية بالملاحظة المُغرقة في البرود، وفي بعض الحالات تخاطر تفاهة التفكير أو تلك الحكمة الدارجة -والتي تعطي عبر الملل الذي تنشره الانطباع بالهدوء والطمأنينة- حتى تظهر صالحةً لكل وضع فني، تجنح الذات فيه إلى الصمت، وتحتجب كليًّا عن الأنظار. وهكذا يتم البحث دائمًا عن كل ما لا يبعث على القلق، حتى إن الكلمة الأكثر جفافًا ستكون هي الخيار الأمثل. بل سنذهب إلى حد الاعتقاد أن ذلك الذي لا تعنيه لحظة من الماضي في شيء

سيطلب منه أن يتصور هذه اللحظة. هكذا يتصرف في أغلب الأحيان فقهاء اللغة واليونان بعضهم مع بعض، فلا أحد منهم يثير اهتمام الآخر، وهذا ما نسميه أيضًا الموضوعية! وهناك -حيث يتوجب بالضبط عرض العظيم والنادر- فإن اللامبالاة المقصودة والمعروضة على الجميع، والاستدلال البارد والجاف يبعثان على الغضب، خصوصًا حين يكون زهو المؤرخ من يدفع إلى هذه اللامبالاة التي تتخذ مظهرًا موضوعيًّا. وبالمناسبة فإزاء هكذا كتاب يتوجب علينا أن نحفز حكمنا وفق المبدأ الذي يقول: ما ازداد زهو المرء بنفسه إلا نقص عقله. لا، لتكونوا على الأقل صادقين مع أنفسكم! لا تبحثوا عن مظهر القوة الفنية كالتي تستحق فعلاً اسم الموضوعية، ولا تبحثوا عن مظهر العدالة إذا لم تكونوا قد خلقتم لأداء هذا الدور المخيف الذي اسمه العدالة. وكما لو أنه كان من واجبات كل زمن أن يكون عادلاً تجاه كل الأزمنة السابقة، إن الأزمنة والأجيال لا تملك ألبتة الحق في أن تكون حكم كل الأزمنة والأجيال الماضية، بل دائمًا بعض الأفراد فقط، وأعني البعض النادر منهم، من تُوكل إليهم هذه المهمة غير المريحة.

لكن من يرغمكم على إصدار أحكام على الماضي؟! لتختبروا أنفسكم إن أمكنكم أن تكونوا عادلين حين تريدون ذلك؛ إذ يتوجب عليكم كقضاة أن تكونوا في مستوى أعلى ممّن تقاضونهم، في حين أن ميزتكم الوحيدة أنكم وصلتم في وقت متأخر. إن الضيوف الذين يلتحقون في وقت متأخر بمائدة الطعام يتوجب عليهم -وعن حق- أن يجلسوا على الكراسي الأخيرة، لكنكم تريدون الكراسي الأمامية لأنفسكم؛ لتحققوا على الأقل شيئًا عظيمًا وساميًا، وحينها قد تفسح لكم الأجيال السابقة مكانًا بينها رغم وصولكم المتأخر.

ويمكنكم انطلاقًا من القوة العظمى للحاضر فقط أن تفسروا الماضي، وعند الإجهاد الأكثر قوة فقط لخصالكم الأكثر نبلاً سوف تتمكنون من معرفة ما هو عظيم في الماضي ويستحق المعرفة والحفاظ عليه، الشبيه عبر الشبيه، وإلا فإنكم ستنزلون

بالماضي إلى مستواكم. لا تعتقدوا بكتابة تاريخية لا تخرج من عقول الشخصيات الأكثر ندرة. ستعرفون دائمًا قيمة هذه العقول حين تكون مدفوعة للتعبير عن فكرة عامة، أو حين يتوجب عليها تكرار شيء متداول. يتوجب على المؤرخ الحقيقيّ أن يمتلك قوة تحويل ما هو متداول إلى شيء لم يسمع به أحد، وأن يعلن ما هو عام بشكل بسيط وعميق، بحيث ينسينا العمق البساطة، وتنسينا البساطة هذا العمق. لا يمكن لأيٍّ كان أن يكون في الوقت نفسه مؤرخًا كبيرًا فنانًا، وعقلاً محدودًا، ولا يتوجب في هذا السياق احتقار العمال الذين يدفعون العربة بأيديهم، يردمون الحفر، أو ينخلون الرمل بدعوى أنهم لن يستطيعوا ألبتة أن يصبحوا مؤرخين كبارًا، كما لا يتوجب جمعهم مع هؤلاء، بل النظر إليهم مثل عمال في خدمة السيد شيء مثل ذلك الذي يسميه الفرنسيون -في سذاجة أكبر من تلك السذاجة التي لدى الألمان- مؤرخًا على طريقة السيد تيير (Thiers). إن أمثال هؤلاء العمال سيصبحون شيئًا فشيئًا علماءَ كبارًا، لكن ذلك لن يكفي ألبتة ليصبحوا أسيادًا. العالم الكبير والعقل المحدود شيئان يلتقيان بسهولة تحت القبعة نفسها.

إذن إنه الإنسان المتفوق والمجرب من يكتب التاريخ، فذلك الذي لم يعش في حياته أحداثًا أعظم وأسمى من تلك التي عاشها الآخرون لن يتمكن من تفسير ما هو عظيم وسامٍ في الماضي. إن كلمة الماضي هي دائمًا كلمة متنبئ؛ إذ كبناة للمستقبل وعارفين بالحاضر فقط يمكنكم إدراك معناها. إننا نشرح الآن مبدئيًّا التأثير العظيم البعيد والعميق جدًّا لنبوءات دلفي، وفي الحقيقة الكهنة الدلفيون كانت لهم معرفة عميقة بالماضي. وفي اللحظة التي تنظرون فيها نحو المستقبل وترسمون لأنفسكم هدفًا ساميًا حينذاك تمتلكون في الآن نفسه ناصية هذه الغريزة التحليلية السخيّة، والتي هي الآن لديكم تدمّر الحاضر، وتجعل من كل راحة وكل تقدم وديع وكل نضجٍ أمرًا مستحيلاً. لتحصنوا أنفسكم بأمل عظيم وواسع، ولتشيدوا لأنفسكم الصورة التي يتوجب على المستقبل أن يتطابق معها، وانسوا اعتقادكم بأنكم مجرد

مقلدين، فهذه مجرد خرافة. ستكون لكم أشياء كثيرة تفكرون فيها وتبدعونها إن فكرتم في هذه الحياة المستقبلية، لكن لا تطلبوا من التاريخ أن يطلعكم على الكيفية والوسيلة، وإذا ما تماهيتم مع تاريخ الرجالات الكبار فإنكم ستتعلمون منه أمرًا ساميًا يدعوكم إلى النضج والإفلات من الإكراهات الصاخبة للتربية المعاصرة، والتي تجد ضالّتها في الحؤول دون نضجكم، حتى تتمكن من السيطرة عليكم واستغلالكم، وإذا ما شعرتم بحاجة إلى الاطلاع على سير العظماء فلا تختاروا تلك الموسومة بعنوان من قبيل: "السيد فلان وزمنه"، بل فضّلوا عليها الدراسات التي قد تحمل عنوانًا من قبيل: "مناضل ضد زمنه". أشبعوا أرواحكم بكتابات بلوتارك (Plutarch)، ولتجرؤوا على الإيمان بأنفسكم عبر الإيمان بأبطاله، فبمئة من هؤلاء الرجال الذين تربّوا على النقيض من الأفكار المعاصرة، والذين بلغوا نضجهم وتعودوا على ما هو بطولي، ستدفعون بثقافة العصر المنحطة والصاخبة إلى الصمت الأبدي.

7

حين يحكم المعنى التاريخي دون حدود ويستخلص كل نتائجه سيقتلع جذور المستقبل؛ وذلك لأنه يدمر الأوهام، ويحرم الأشياء القائمة من مجالها، والتي لا تستطيع الاستمرار في الحياة في غنىً عنه. إن العدالة التاريخية -حتى في حال تحققها وتطبيقها بشكل صافٍ- تظل فضيلة مُرعبة؛ لأنها دائمًا ما تقبر الحياة وتُطوح بها، فحكمها دائمًا مُدمّر، فإذا لم تكمن خلف الغريزة التاريخية غريزة بنّاءة تفعل فعلها في الواقع، وإذا لم يتم الهدم والكنس بشكل يسمح للمستقبل الحيّ الذي يراود أحلامنا ببناء بيته على الأرض المحررة، وإذا ما اكتفت العدالة بالحكم فإن الغريزة الخلاّقة ستفتقد القوة والشجاعة. إن دينًا مثلاً يتم تنزيل تعاليمه في المعرفة التاريخية وفي ظل حكم العدالة المحضة دينٌ يتوجب معرفته كليًّا بشكل علمي، سينتهي في

نهاية هذا المسار إلى الدمار، والسبب في ذلك يعود إلى أنه في الحساب التاريخي يظهر دائمًا الكثير من الخطأ والفظاظة واللاإنسانية والعبث والعنف، وتتبدد أجواء الوهم النقية بالضرورة، والتي فيها يستطيع الحياة من يريد الحياة فقط؛ ذلك أن الإنسان لا يستطيع أن يبني إلا في الحب، أي عندما يكون محاطًا بوهم الحب سيمتلك إيمانًا غير مشروط بالكمال والعدالة. وكل إنسان نُكرهه على التوقف عن الحب بشكل غير مشروط نقتلع بذلك جذور قوته، حينها سيضربه الجفاف ويهجره الصدق. وهكذا يتوجب أن نواجه تأثير التاريخ بالفن؛ إذ حين نتحمل تحوّل التاريخ إلى عمل فني فقط، أي إلى عمل فني محض، حينها لربما سيمكننا المحافظة على غرائز الحياة أو بعثها من جديد، ولكن مثل هذه الطريقة لكتابة التاريخ ستقف على النقيض من الميول التحليلية والمضادة لعصرنا، بل سيتم الإحساس بها باعتبارها تزييفًا، لكن الدراسات التاريخية التي لا تفعل ما هو أكثر من التدمير دون أن تقودها غريزة بنّاءة ستشوّه وسائلها مع مرور الوقت، ذلك أن مثل هؤلاء الناس يدمرون الأوهام، ومن "يدمر أوهامه وأوهام الآخرين ستعاقبه الطبيعة التي هي الطاغية الأكثر صرامة". أجل، يمكننا لبعض الوقت أن نهتم بالدراسات التاريخية في براءة تامة ودون رعونة، كما لو أن الأمر يتعلق هنا بعمل مثل بقية الأعمال. ويبدو أن اللاهوت الجديد خصوصًا قد دخل في علاقة مع التاريخ معتقدًا أن لا ضررَ سيلحقه من ذلك، وإلى الآن يغفل عن إدراك أنه وضع نفسه -وضد إرادته ربما- في خدمة فولتير ومقولته: "امحقوا العار!". لا يجب ألبتة أن نتوهم أن الأمر يتعلق هنا بغريزة بناء جديدة وقوية، إلا إذا اعتبرنا ما يسمى بالجمعية البروتستانتية رحمًا لديانة جديدة، واعتبرنا الفقيه القانوني هولتسن دورف (ناشر مقدمة الإنجيل وكاتبها الذي يزعم أنه الأكثر بروتستانتية) مثل القديس يوحنا المعمدان على ضفة نهر الأردن، ومن الممكن أنه لوقتٍ ما قد ساعدت الفلسفة الهيغلية والتي ما زال دخانها يملأ الرؤوس الهرمة بنشر هذه السذاجة، والتي تقول مثلاً بالتمييز بين "الفكرة المسيحية"

و"تمظهراتها" المختلفة والناقصة، بل سيدفع المرء بنفسه إلى الاعتقاد بأن هذه الفكرة تتمظهر باستمرار في أشكال أكثر نقاءً، لتصل في النهاية إلى الأكثر نقاءً وشفافية، وبالكاد تكون مرئية في دماغ هذا اللاهوتي المبتذل المعاصر لنا. وعندما يستمع المرء إلى هذه الأشكال المسيحية الأكثر نقاءً وهي تتحدث عن الأشكال المسيحية السابقة -والتي حسبها كانت مدنسة- فإن المنصت المحايد سيخرج غالبًا بانطباع يقول إن القضية لا تتعلق ألبتة بالمسيحية. لكن بماذا يتعلق الأمر إذن؟ وبأي شيء يجب علينا أن نفكر حين نسمع "كبار لاهوتيي هذا العصر" يعرفون المسيحية باعتبارها الدين الذي يسمح "بالدخول إلى روح كل الأديان الحقيقية، والأكثر من ذلك حتى إلى تلك الأديان الممكنة فقط". وحين تصبح "الكنيسة الحقيقية" التي ستأتي بالمستقبل "كتلة منصهرة ودون ملامح، حيث كل قسم يجد نفسه مرة هنا ومرة هناك، والكل يمتزج في سلام". في أي شيء يتوجب علينا مرة أخرى أن نفكر؟ إن ما حدث مع المسيحية، وأعني تحولها إلى دين غير إنساني وغير طبيعي بسبب العلاج التاريخي (إلى درجة أن هذا العلاج قد صنع منها مجرد تاريخ للدين أو للدين الذي كانته) يمكننا أن ندرسه عند كل كائن يمتلك الحياة. فما يحيا يتوقف عن الحياة حين نفرغ من تشريحه. إن الوضع المؤلم والمرضي يبدأ حين تبدأ تمارين التشريح التاريخي. إن هناك من الناس من يعتقد بقوة شفاء مُغيرة ومُصلحة، تتمظهر فيها تقدمه الموسيقى الألمانية للألمان، إنهم يشعرون بالغضب، وينظرون إلى الأمر باعتباره ظلمًا بحقّ الشيء الأكثر حياة في ثقافتنا، حين يتم تعريض رجال مثل موزارت وبيتهوفن اليوم لكل هذه الحثالة المعرفية لكُتّاب السير، وإرغامهم من طرف نظام التعذيب المرتبط بالنقد التاريخي على الإجابة عن آلاف من الأسئلة المتطفلة. إن هذا الذي لم يفقد تأثيراته الحية بعد، ألا يتم اعتباره منتهيًا أو على الأقل مشلولاً وذلك عبر توجيه فضولنا العلمي إلى تفاصيل للحياة لا تعدّ ولا تحصى، وإلى أعمال للبحث عن مشاكل معرفية، هناك حيث يتوجب علينا أن نتعلم الحياة وننسى كل المشاكل؟ فإذا ما بعثنا

في خيالنا ببعض من كتاب السيرة المعاصرين إلى المكان الذي نشأت فيه المسيحية، أو إلى المكان الذي نشأ فيه الإصلاح اللوثري، فإن فضولهم النفعي سيكون كافيًا للحؤول دون تحقق هذا الحدث الديني، كما يحول الحيوان الأكثر بؤسًا أمام نشأة السنديان الأكثر قوة عبر ابتلاعه ثمرة البلوط. إن كل ما هو حي يستدعي إحاطته بجوٍّ أو هالة غامضة، وإذا ما نزعنا عنه هذا الغطاء، وإذا ما حكمنا على دين أو فن أو عبقرية أن تدور مثل نجم دون غلاف يحميه، فلا يجب أن نندهش إذا ما انتهى هذا الجسم إلى الجفاف والتصلب والعقم في غضون وقت قصير. إنه القانون الذي يحكم كل الأشياء العظيمة، التي كما يقول هانز زاكس (Hans Sachs) في مغني نورنبرغ: "لا تزدهر دون قليل من الجنون". لكن كل شعب وكل شخص يطلب النضج يحتاج إلى واحدة من هذه الأوهام التي تحميه، أي إلى سحابة تحميه وتغطيه. اليوم نحن نكره النضج؛ لأننا نقدس التاريخ أكثر من الحياة، بل علاوة على ذلك نفخر بأن "العلم بدأ بالسيطرة على الحياة". ومن الممكن أن ننتهي إلى هذه الحال، لكن من المؤكد أن الحياة المحكومة بهذه الطريقة غير ذات قيمة؛ لأنها أقل بكثير من أن تكون "حياة"، وهي تحمل في بذرتها حياة أقل بالنظر إلى المستقبل من الحياة الماضية التي كانت تحكمها الغرائز وأوهام قوية. سيتم الاعتراض علينا بأنه لا يتوجب على عصرنا أن يكون عصر شخصيات مكتملة وناضجة ومنسجمة، ولكن شخصيات قادرة على أداء عمل جماعي ومفيد. وهذا يعني أنه يتوجب تربية البشر على تلبية احتياجات عصرنا، قادرين على استعمال أياديهم. إنه يتوجب عليهم العمل في مصنع المنافع العامة قبل أن يصبحوا ناضجين، أو بالأحرى حتى لا يبلغوا النضج؛ لأن النضج ترفٌ من شأنه أن يحرم سوق العمل من قوة عمل هو في حاجة إليها. إن الأمر أشبه بفقءِ أعين بعض الطيور حتى تغني بشكل أفضل. إنني لا أعتقد أن رجال اليوم يمكنهم الغناء أفضل من أجدادهم، لكنني أعرف أنهم يريدون تعميتهم، والوسيلة الفاسدة التي يتم استخدامها من أجل تعميتهم ضوء مغرق في

النصاعة والفجائية والتغير. وهكذا سيتم جلد الشباب عبر القرون، شباب لا يفهم شيئًا عن الحرب، ولا عن المفاوضات الدبلوماسية أو السياسة التجارية، يتم اعتبارهم جديرين بتعلم التاريخ السياسي. وهكذا وكما يمشي الشاب عبر التاريخ نمشي نحن المعاصرين عبر المتاحف أو نستمع إلى الموسيقى، ونشعر أن هذه الموسيقى مختلفة عن الأخرى وأن تأثيرها مختلف. إن فقداننا الإحساس بالغرابة أكثر فأكثر، وانعدام الشعور بالدهشة أمام الأشياء، وأخيرًا تقبُّل كل شيء هذا هو ما نسميه المعنى التاريخي أو الثقافة التاريخية. وحتى نتحدث دون تجميل للعبارة فإن كمية المعرفة التي تأتينا من كل صوب وحدب كبيرة؛ فكثيرة هي العناصر الغريبة والوحشية التي تتدافع في عنف "مكدسة في أكوام بشعة"، لتجد لها سبيلاً إلى روح شابة، هذه الروح التي لا تملك موردًا آخر للدفاع عن نفسها أمام هذا الغزو سوى الذهول. وعند شخصيات أخرى تمتلك منذ البداية معرفة أكثر ذكاءً وقوة لن يتأخر الإحساس بالاشمئزاز في التعبير عن نفسه. لقد أصبح الشاب متشردًا، وأضحى يشك في كل العادات والمفاهيم. إنه يعرف الآن جيدًا أن لكل زمان عاداته بغض النظر عمّا تكون، وفي انعدامٍ للإحساس يتلبسه الحزن ويترك الآراء تمر من أمامه ليدرك كلمة هولدرلين، وإحساسه وهو يقرأ ديوجين اللايرسي وكتابه عن حياة الفلاسفة اليونان وتعاليمهم: "ومرة أخرى أشعر بهذا الإحساس الذي أحسسته من قبل، وهو أن هذا الطابع العابر والمتغير للأفكار والأنساق الإنسانية يؤثر فيَّ بشكل تراجيدي أكثر مما تؤثر مصائر الناس الواقعية". إن مثل هذا الفيضان التاريخي المتعب والعنيف ليس ألبتة بالأمر الضروري للشباب -كما يوضح لنا ذلك مثال الأقدمين- بل أكثر من ذلك؛ فهو يمثل خطرًا، وخطرًا شديدًا كما نلحظ ذلك عند معاصرينا. لكن لنتأمل الآن طالب التاريخ نفسه الذي ورث في سنٍّ مبكرة الإحساس بالعظمة، لقد تماهى مع منهجية أستاذه وقبضة يده ونبرته. فصل صغير من الماضي معزول في عناية عن الباقي يمثل مجال التجارب الذي سيصبح موضوعًا

لحكمته، وللمنهجية التي اكتسبها. لقد أنتج بالفعل -أو من أجل استعمال عبارة أكثر غطرسة- "لقد خلق"، ومنذ ذلك الحين أصبح -عبر عمله الكبير- خادمًا للحقيقة، وسيّدًا في مجال التاريخ. وإذا تكوّن وهو بعدُ طفلٌ فإن تكوينه قد بلغ الآن الذروة، وما عليكم سوى هزه برفق لتسقط الحكمة في ضجة من أغصانه، لكنها حكمة فاسدة، ولكل ثمرة دودتها. صدقوني، حين نطلب من الرجال العمل، ونريدهم أن يكونوا مفيدين في مصنع العلم من قبل أن يبلغوا نضجهم فإننا ندمر العلم بذلك في أجل قصير، تمامًا كما ندمر العبيد الذين يشتغلون منذ وقت باكر في هذا المصنع. آسفٌ أني مضطر إلى استعمال اللغة العامية لمُلاك العبيد وأرباب العمل لوصف الظروف المعيشية، والتي يتوجب تصورها حرةً من كل نفعية، ومحمية من ضرورات الحياة، ولكن تعبيرات لا إرادية مثل "مصنع" و"سوق العمل" و"عرض وطلب" و"استغلال" تقفز إلى شفاهنا عندما نريد وصف جيل العلماء الأكثر شبابًا. إن الرداءة الصادقة تزداد رداءة، والعلم من وجهة نظر اقتصادية دائمًا أكثر نفعية. وفي الواقع فإن النموذج الأخير من العلماء تلقّى تكوينًا فيما يتعلق بنقطة واحدة فقط، وفي هذه النقطة هم حقيقةً أكثر معرفة من كل رجالات الماضي، ولكن فيما يتعلق بالنقاط الأخرى -وحتى نتكلم بحذر- فإنهم مختلفون بشكل لا نهائي عن كل علماء النموذج القديم. وعلى الرغم من ذلك يطالبون بتقدير وامتيازات لأنفسهم، كما لو أن الدولة والرأي العام مجبران على إعطاء العملات الجديدة القيمة نفسها التي يعطونها للقديمة. إن سائقي العربات قد وقَّعوا فيما بينهم عقد عمل، وأصدروا مرسومًا يقول: إن العبقرية عديمة الفائدة، معتبرين أن كل سائق منهم يتمتع بالعبقرية، لكن الأجيال المقبلة ستحكم على ما سيخلفونه وراءهم بالضحالة. أما الآخرون الذي يمتلئ فمهم -بلا تعبٍ- بالنداء إلى الحرب والتضحية وهم يرددون: "تقسيم العمل، وظلوا في صِفوفكم!"، فيتوجب الرد عليهم بصوت واضح وعالٍ: ما أردتم التسريع من وتيرة تطور العلوم إلا دمرتم بسرعة هذه

العلوم، تمامًا كما تهلك دجاجة حين نرغمها على وضع البيض بسرعة بشكل اصطناعي. لقد حقق العلم في العقود الأخيرة تقدمًا سريعًا ومدهشًا، لكن انظروا إلى العلماء، لقد أضحوا مثل دجاج منهك القوى، إنهم بالفعل ليسوا بكائنات "منسجمة"! إنها لا تعرف سوى النقنقة أكثر من السابق؛ لأنها تضع بيضًا أكثر. وصحيح أن حجم هذا البيض يصغر باستمرار، تمامًا كما تزداد ضخامة كتب العلماء اليوم باطراد. نتيجة أخيرة لذلك ونتيجة طبيعية أيضًا هي الرغبة العامة في "تعميم" العلم (تمامًا مثل تأنيثه وجعله طفوليًّا)، وهو ما يساوي تكييف سترة العلم مع جسد "الجمهور العام" حتى نستعمل هنا ألمانية الخياط لوصف عمله. لقد رأى غوته في هذه العملية سوء استعمال للعلم، وأراد ألا تفعل العلوم فعلها في العالم الخارجي إلا عبر ممارسة راقية. لقد كانت للأجيال القديمة من العلماء أسباب معقولة حتى تنظر إلى مثل هذه الإساءة باعتبارها أمرًا مؤلمًا ومزعجًا، بل حتى العلماء الشباب كان لهم أيضًا أسباب معقولة لكي لا يأخذوها على محمل الجد، وذلك بغض النظر عن المجال العلمي الصغير الذي ينتمي إليهم، فهم أيضًا جزء من الجمهور العام، ويحملون حاجاته بداخلهم، ويكفيهم أن يجلسوا في ارتياح حتى يفتحوا مجال دراستهم على الحاجة والفضول الشعبيين، ولتصبح هذه البادرة الكسول عنوانًا "للنزول المتواضع للعالم إلى شعبه"، في حين أن العالم لم ينزل إلا في داخل نفسه باعتبار أنه ليس ألبتة بعالم، بل جزءٌ من الرعاع. لتصنعوا بأنفسكم مفهومًا للشعب لا يمكنكم تصوره أكثرَ نبلاً وشموخًا، فإذا كانت لديكم فكرة راقية عن الشعب فعليكم أن تحسوا بالرحمة تجاهه، وأن تمنعوا أنفسكم من أن تقدموا له هذا الترياق التاريخي كما لو أنه مشروب مرطب ومنعش للحياة، لكن في العمق تفكرون قليلاً في موضوع الشعب؛ لأنه لا يمكنكم أن تشعروا أمام مستقبله بإجلال حقيقي ومبني على أسس صلبة وتتصرفون مثل متشائمين تطبيقيين، وأعني مثل بشر يقودهم حدس بالانحطاط، والذين -عبر ذلك- أصبحوا لا مبالين إزاء مصلحة

الآخرين كما هم إزاء مصلحتهم، ويكفي أن تستمر هذه الأرض في حملنا! يقولون لأنفسهم، ويتابعون: إنه إذا لم يعد بإمكانها ذلك فالأمر سيّان، ذاك شعورهم، وهكذا يعيشون حياة ساخرة.

8

يمكنه أن يظهر غريبًا ولكن لا يحق له أن يظهر متناقضًا. إذا ما منحت رغم كل شيء إلى حقبة معينة تؤكّد إراديًا ثقافتَها التاريخية، وتقوم بذلك عبر إطلاق صرخات النصر نوعًا من الوعي الذاتي الساخر، أو نوعًا من الإحساس المبهم بأن الأمر لا يتعلق هنا ألبتة بالفرح، أو نوعًا من الخوف من أن زمن المعرفة التاريخية السعيد يقترب من نهايته. فيما يتعلق ببعض الشخصيات كان غوته قد عرض علينا مشكلة مماثلة وهو يقدم لنا عرضًا مدهشًا لمميزات نيوتن، إنه يجد في أعماق (أو بالأحرى في قمة) وجوده "توقعًا غامضًا بأخطائه"، والتعبير الذي تتم ملاحظته في بعض اللحظات -عن وعي متفوق وعادل- تمكن من تجاوز طبيعته الخاصة عبر نوع من النظرة العامة الساخرة. وهكذا نجد -خصوصًا عند كبار التاريخيين من البشر- الوعي الذي يصل أحيانًا إلى حد الشك العام، وبأنه من الوهم الاعتقاد بأن تربية الشعب يتوجب أن تكون -كما هي الحال عليه اليوم- تاريخية بشكل أساسي. ألم تعش الشعوب القوية -وأعني القوية في الأفعال والإنجازات- بشكل مختلف، وربّت شبابها بشكل مختلف؟ ولكن -كما يعترض المتشككون- هذه الخرافة وهذا التناقض يناسبنا نحن الذين حضرنا إلى الحياة متأخرين، نحن الأغصان الأخيرة الباهتة للأجيال القوية والسعيدة. يتوجب علينا تطبيق نبوءة هزيود (Hesiod) التي تقول: إن البشر سيولدون يومًا بشعر رمادي، وبأن زيوس سيدمر هذا الجيل مباشرة بعد ظهور هذه العلامة. إن الثقافة التاريخية هي فعلاً نوع من الشيخوخة التي تبدأ منذ الولادة، وأولئك الذين يحملون علاماتها منذ الطفولة لا بدّ أنهم سيصلون إلى

الاعتقاد غريزيًّا بشيخوخة البشرية، لكن الشيخوخة تناسبها اهتمامات معينة من قبيل النظر إلى الوراء، وتقويم الماضي واستخلاص النتائج، والبحث عن عزاء فيما كان عبر الذكريات، أو باختصار عبر الثقافة التاريخية. إن النوع الإنساني متماسك ومثابر، ولا يريد أن نحكم على خطواته -سواءً أكانت إلى الأمام أم إلى الخلف- من خلال مئات الآلاف من السنوات. إنه لا يريد -باعتباره كُلا- أن يتم النظر إليه انطلاقًا من النواة الصغيرة اللانهائية التي هي الإنسان الفرد. وماذا يمكنها أن تقول لنا بضعة آلاف من السنوات (أو حتى نعبر عن ذلك بشكل آخر: المدة الزمنية لأربعة وثلاثين من الأجيال المتوالية، تبلغ حياة كل إنسان فيها ستين عامًا) حتى نتمكن من الحديث في بداية هكذا زمن عن "شباب البشرية"، وفي نهايته عن "شيخوختها"؟! ألا يكمن في مثل هذا الاعتقاد الذي يبعث على الشلل بإنسانية تقترب من نهايتها سوءُ الفهم المرتبط بتصور لاهوتي مسيحي موروث من القرون الوسطى، وأعني فكرة نهايةٍ قريبةٍ للعالم، وحكمٌ نهائي يتم انتظاره في توجس، وسيتجلى هذا التصور في تزايد الحاجة إلى الحكم التاريخي، كما لو أن حقبتنا -التي ينظر إليها باعتبارها آخر الحقب الممكنة- ستجد نفسها مؤهلة لإصدار حكم نهائي على مجموع الماضي، هذا الحكم الذي لا تنتظره الديانة المسيحية ألبتة من الإنسان ولكن من المسيح الابن؟ وفي الماضي كانت المقولة الآتية: "تذكر أنك ميت"، والتي ألقي بها إلى البشرية كما إلى الفرد لدغة لا يتوقف ألمها، وفي الآن نفسه القمة التي بلغها العلم والوعي في القرون الوسطى. أمّا المقولة المضادة التي تعبر عن الأزمنة المعاصرة: "لا تنسَ أنك حي" فما زال يطبعها الخجل وانعدام الثقة، وتبدو شيئًا ما غير صادقة؛ ذلك أن الإنسانية ما زالت ملتصقة بالمقولة الأولى، وهو ما تعبّر عنه عبر حاجتها إلى التاريخ الكوني. إن العلم -رغم ضربات أجنحته القوية- لم يحقق بعد حريته، فإحساس عميق باليأس ما زال قائمًا، وقد اتخذ صبغة تاريخية هي التي تلقي بظلالها الآن على كل تربية وثقافة عالية. إن ديانة تنظر إلى الساعة الأخيرة في حياة الإنسان باعتبارها أهم

ساعة، وتتنبأ بنهاية للحياة على الأرض، وتحكم على كل الأحياء بالعيش في الفصل الخامس للتراجيديا، هي ديانة تحرك فينا -لا ريب- القوى الأكثر عمقًا ونبلاً، لكنها معادية لكل زرع جديد، ولكل محاولات جريئة أو شهوات متحررة، وتعترض على كل تحليق نحو المجهول؛ لأنها هناك لا تجد ما تحبه وتأمل به. إنها لا تسمح للجديد بالدخول إلا مكرهة؛ لكي تعمل على إقصائه والتضحية به في اللحظة المناسبة باعتباره مصدرَ غواية وكاذبًا فيما يتعلق بقيمة الحياة. إنّ ما فعله الفلورنسيون لمّا كانوا تحت تأثير خطب سافونارولا (Savonarola) -عبر تنظيمهم تلك المحرقات للوحات الفنية والمخطوطات والمرايا والأقنعة- ما تريد المسيحية القيام به مع كل ثقافة أخرى تطلب التقدم، واختارت كشعار لها: "لا تنسَ أن تحيا". وإذا لم يكن بالإمكان تحقيق ذلك على الطريق المستقيم دون التفاف إلى الخلف -أي عبر قواها المتفوقة- فإنها ستصل مع ذلك إلى هدفها إذا ما تحالفت مع الثقافة التاريخية، وغالبًا دون علم منها، وستتكلم حينها لغتها، وتعترض في استهجان على كل ما ينتمي إلى مصيرها، وتصفه بالمؤرخ والمقلد وبالذي ولد بعلّة موت. إن الاعتبار المرير والعميق حول تفاهة كل ما حدث، وحول هذا العالم الذي نضج بشكل يسمح بعرضه على المحكمة، ترك المكان للاعتقاد المتشكك الذي يرى أن معرفة الماضي في كل الأحوال أمر جيد؛ وذلك لأن الوقت قد تأخر لفعل شيء أفضل. وهكذا يصنع المعنى التاريخي من خادمه شخصًا سلبيًّا ورجعيًّا، وحين يتم تعطيل هذا المعنى التاريخي فقط عبر لحظات نسيان سيستعيد الإنسان المريض بالحمى التاريخية نشاطه، ولكن مباشرة بعد مرور فعله سيبدأ بتشريحه حتى يمنعه عبر هذا الاعتبار التشريحي من الاستمرار في التأثير، ويُلحقه عبر ذلك بمجال "التاريخ". وبهذا المعنى فإننا ما نزال نعيش في القرون الوسطى، ومجال التاريخ مجرد لاهوت مقنع، كما أن الرهبة التي يشعر بها الشخص العادي إزاء الطبقة المتعلمة هي نفسها تلك التي كان يشعر بها الناس إزاء طبقة الإكليروس، وما أعطاه المرء في الماضي للكنيسة

يعطيه اليوم للعلم، وإن بشكل أقل، لكن واقع أن المرء قدم شيئًا هو أمر ساهمت فيه الكنيسة منذ زمن طويل، ولم يبدأ مع العقل الحديث، والذي -إذا تركنا جانبًا بعض عاداته الجيدة- يظل معروفًا ببخله وبروده إذا تعلق الأمر بالكرم.

قد لا تُرضي هذه الملاحظة أحدًا، ولربما بالقدر نفسه استنباطي هذا الإفراط في التاريخ من المبدأ القروسطي (كل شيء آيل للموت)، ومن اليأس الذي تحمله المسيحية في قلبها تجاه كل الأزمنة المقبلة للوجود الدنيوي، لذا دعونا نستبدل هذه التفسيرات التي لم أقدمها إلا مع بعض التردد بأخرى أفضل؛ ذلك أن أصل هذه الثقافة التاريخية ومعارضتها الراديكالية لروح "الأزمنة الجديدة" و"الوعي الحديث" يتوجب دراسته من وجهة نظر تاريخية. إن على التاريخ أن يحلّ مشكلة التاريخ بنفسه، وعلى العلم أن يستعمل مبضعه ضد نفسه. إن هذا الواجب الثلاثي هو الأمر الجبري لروح "الزمن الجديد" في حال ما إذا وجد فعلاً شيء جديد وقوي وأصلي ومنعش في هذا الزمن الجديد، أم إنه حقيقي أننا -نحن الألمان- حتى نترك الشعوب الرومانية خارج هذه اللعبة، يتوجب علينا في كل شؤون الثقافة الكبرى ألا نكون أكثر من مجرد "خلف"؟ لقد عبر فيلهلم فاكرناغل مرة عن هذه الفكرة في جملة يتوجب علينا تأمّلها: "مهما فعلنا سنظل -نحن الألمان- مجرد خلف، وذلك على الرغم من علومنا المتفوقة ومن إيماننا، فنحن دائمًا مجرد خلف للعالم القديم، وحتى أولئك الذين يرفضون ذلك ويعادونه يتنفسون بلا توقف روحَ المسيحية، وفي الوقت نفسه الثقافة الكلاسيكية القديمة، وإذا ما نجح أحدهم في طرد هذين العنصرين من هواء الحياة الذي يحيط بالحياة الداخلية للإنسان، فلن يظل ألبتة شيء يمكننا أن نملأ به الحياة الإنسانية". وحتى إذا ما استكنّا عن طيب خاطر لدورنا كخلف للعصور القديمة، وقررنا أن نأخذ فعلاً هذه المهمة بجدية، ونظرنا إليها باعتبارها امتيازنا الوحيد، فإننا سنضطر أيضًا إلى طرح السؤال عمّا إذا كان مصيرنا الأبدي هو أن نكون تلاميذ للعصور القديمة، لكن في وقتٍ ما يتوجب أن نمتلك

الحق تدريجيًّا في اختيار هدف أكثر بعدًا وعلوًّا، ويتوجب علينا في سياق آخر أن نجهر بالمديح لأنفسنا؛ لأننا أعدنا بعث روح الثقافة الإسكندرية-الرومانية بطريقة مثمرة وعظيمة. أما مكافأتنا الأكثر نبلاً فستكون في تحملنا مهمة أعظم من سابقتها، وهي أن نمضي إلى أبعد من هذا العالم الإسكندري، وأن نبحث عن قدوتنا بشجاعة في العالم الأصلي والطبيعي والإنساني لليونان القديمة، هناك سنلتقي بثقافة في جوهرها لا تاريخية، لكن على الرغم من ذلك -أو بالأحرى بسبب ذلك- سنجدها مفرطة في الغنى والحياة حتى لو لم نكن كألمان أكثر من مجرد خلف، وننظر إلى مثل هذه الثقافة كميراث يتوجب أن نمتلكه؛ إذ لا يمكننا أن نتصور شيئًا أكثر عظمة ويبعث على الفخر من أن نكون خلفًا لهذا السلف العظيم. أريد أن أقول عبر هذا وأؤكد ذلك بأن هذه الفكرة المؤلمة في أغلب الأحيان -وأعني فكرة أن نكون مجرد مقلدين- إذا ما تأملنا فيها بشكل عميق يمكن أن تكون لها آثار كبيرة ورغبة يملؤها الأمل بالمستقبل سواءً لدى الفرد أو الشعب، وهذا بقدر ما ننظر إلى أنفسنا باعتبارنا ورثة قوى كلاسيكية ومدهشة وأحفادَها، ونجد في ذلك شرفًا لنا وحافزًا على العمل، وطبعًا ليس كخلف ضامر وباهت لأجيال قوية، لا يطلب -كتاجر تحف وحفّار قبور تلك الأجيال- أكثر من إطالة حياته التعيسة. إن أمثال هؤلاء المتأخرين يعيشون طبعًا حياة ساخرة، فالفناء يقتفي عن كثب سيرة حياتهم العرجاء، إنهم يرتجفون حين يريدون الابتهاج بالماضي؛ ذلك لأنهم ذاكرات حية، ومع ذلك فإن استعادة الماضي دون ورثة مجرد من المعنى. إحساس غامض يرخي سدوله عليهم، إحساسهم بأن حياتهم باطلة، وأن لا مستقبل يمكنه أن يبررها. لنتخيل إذن تجار التحف المتأخرين هؤلاء وهم يستبدلون فجأة وقاحتهم بهذا الإذعان المؤلم والساخر، لنتخيلهم وهم يعلنون بصوت مُدوٍّ أن النوع البشري قد وصل إلى قمته، وذلك لأن العلمَ وحدَه الآنَ من يحكمه، والآن فقط تكشَّف لذاته، وهكذا نجد أنفسنا أمام عرض سيكشف لنا -كما في رمز- عن الدلالة الملغزة لفلسفة شهيرة للثقافة الألمانية. أعتقد

أنه لم تكن هناك تقلبات وتحوّلات في الثقافة الألمانية في هذا القرن أكثر خطورة من تلك التي تسبب بها تأثير ما زال قائمًا، وأعني تأثير الفلسفة الهيغلية. إن الاعتقاد بأننا وصلنا متأخرين هو أمر محبط وكفيل بأن يسبب لنا مزاجًا سيئًا، ولكن إذا ما عمد مثل هذا الاعتقاد عبر قلب جريء إلى تأليه هذا الكائن الذي وصل متأخرًا كما لو أنه حقًّا معنى كل ما مضى حتى الآن وهدفه، وكما لو أن بؤسه المتعالم مرادف لتحقق التاريخ الكوني حينها إذن سيظهر هذا الاعتقاد باعتباره أمرًا رهيبًا ومدمرًا. إن طريقة التأمل هذه قد عوَّدت الألمان على الحديث عن "صيرورة كونية"، والنظر إلى زمانهم باعتباره النتيجة الحتمية لهذه الصيرورة. إن طريقة التأمل هذه قد فرضت التاريخ مكان القوى الروحية الأخرى -وأعني الفن والدين- باعتباره "المفهوم الذي يحقق نفسه"، وباعتباره "جدل روح الشعوب" و"يوم الحساب". لقد نعت المرء التاريخ كما يفهمه هيغل في تهكم بالإله الذي يمشي في العالم، بحيث إن الإله نفسه صنيعة التاريخ. إن إله المؤرخين هذا لم يصل إلى فهم واضح لذاته إلا داخلَ الأدمغة الهيغلية، وارتقى كل المستويات الدياليكتيكية الممكنة للصيرورة صُعُدًا إلى الكشف الذاتي؛ إذ إنه لدى هيغل نقطة ذروة هذه الصيرورة الكونية ونقطة نهايتها تلتقيان مع حياته الشخصية في برلين، بل توجب عليه أن يقول أيضًا: إن كل الأشياء التي ستأتي بعده هي في الواقع ليست أكثر من ختامية موسيقية لروندو كوني، أو حتى نكون أكثر دقة: مثل شيء لا لزوم له. لم يقل هيغل ذلك، لكنه في المقابل زرع في الأجيال المتأثرة بمذهبه هذا التعظيم "لقوة التاريخ"، والذي يتحول عمليًّا كل لحظة إلى مجرد إعجاب بالنجاح، ويقود إلى عبادة للوقائع. لقد أعطينا لهذا الشكل من العبادة هذه العبارة المغرقة في الأسطورية، والمفرطة في ألمانيتها: "أخذ الوقائع بالحسبان"، لكن الشخص الذي تعود أن يحني عموده الفقري ومعه رأسه أمام "قوة التاريخ" فإنه سينحني في حركة صينية أمام كل "قوة" مهما كان نوعها، سواءً أكانت حكومةً أم رأيًا عامًّا أم أغلبيةً عدديةً، وسيهز أعضاء جسده وفقًا للإيقاع الذي

تمسك أي "قوة" بخيوطه. وإذا كان كل نجاح يحمل في داخله ضرورة معقولة، وإذا كان كل حدث بمنزلة انتصار للمنطق أو "الفكرة"، إذن لنسرع بالنزول على رُكَبِنا، ولنرتقِ درجات "النجاح" عليها. لكن ألم تعد هناك أساطير مهيمنة؟ وهل الدين فعلاً في طريقه إلى الموت؟ لتنظروا إذن إلى دين القوة التاريخية، ولتحذروا من كهنة أسطورة الأفكار ومن ركبهم المخدوشة! ألا تمضي كل الفضائل في موكب هذا الدين الجديد؟ أم إن الأمر يتعلق بالإيثار حين يسمح الإنسان التاريخي بتحويله إلى مرآة موضوعية؟ أليس كرمًا أن نتخلى عن كل عنف في السماء أو الأرض، وأن نعبد -عبر ذلك في كل عنف- العنف في ذاته؟ أليس من العدل أن نمسك دائمًا بيدنا ميزان القوى، ونلاحظ إلى أي جهة سيميل؟ أي مدرسة للآداب الجيدة هو هذا التأمل للتاريخ؟ أن تأخذ كل شيء بموضوعية، ألا تغضب من شيء، ألا تحبّ شيئًا، وأن تفهم كل شيء، إن من شأن كل ذلك أن يجعل المرء ناعمًا ومرنًا. وحتى إن عبّر أحدهم ممّن تعلَموا في هذه المدرسة يومًا وأمام الرأي العام عن غضبه فإننا سنبتهج لذلك، فالجميع يعرف أن غضبه مُصطنع، وأن الأمر يتعلق بغضب لا يلغي إيمانه بالدرس التاريخي، وأنه يظل متشبثًا بالقاعدة التي تقول: "لا غضب ولا اندفاع".

كم من الأفكار الشائخة أحملها في قلبي ضد هذا المركب من الأسطورة والفضيلة! لكن يتوجب عليها الخروج يومًا ما، وعلى المرء أن يضحك دائمًا. سأقول إذن: إن التاريخ يعبر دائمًا كالآتي: "كان في يومٍ ما"، وتقول الأخلاق: "لا يحقّ لكم"، أو "ما كان عليكم"، وهكذا يتحول التاريخ إلى مجرد ملخص للاأخلاق الواقعية. وكم سيكون مخطئًا من ينظر إلى التاريخ في الآن نفسه باعتباره القاضي الذي سيُصدر حكمه على هذه اللاأخلاق الفعلية. إن واقع أن رفائيل (Raffaello) قد توفي في سن السادسة والثلاثين أمرٌ يسيء إلى الأخلاق؛ فمثل هذا الكائن توجّب ألا يموت. وإذا ما أردتم مساعدة التاريخ كمنافحين عن الوقائعي فقط فإنكم ستقولون: لقد قدم كل شيء كان بإمكانه تقديمه، لو أنه عاش حياةً أطول لأبدع جميلاً مشابهًا لما سبق

أن أبدعه، ولم يكن ألبتة ليبدع جديدًا، وهكذا تتصرفون مثل محامي الشيطان؛ وذلك لأنكم تجعلون من النجاح والحدث صنمكم المعبود في حين أن الحدث دائم غبي، وهو يشبه في كل الأزمنة عجلاً أكثر منه إلهًا، وكمنافحين عن التاريخ ومستغرقين في الجهل، ولأنكم تجهلون ما يمكن أن تكونه هذه الطبيعة الخلاقة مثل رفائيل لا يثيركم إدراك أنها كانت في الماضي، وأنها لن تكون ألبتة في المستقبل.

لقد أراد أحدهم أن يخبرنا مؤخرًا بأن غوته في عمر الثانية والثمانين كان قد استنفد قواه الحيويّة، ومع ذلك فإني أستبدل عن طيب خاطر بضع سنوات "مستنفدة" من حياة غوته بكل هذه الحيوات الشابّة والمغرقة في الحداثة، حتى أمتلك نصيبي من الأحاديث المشابهة تلك التي جمعت غوته بإيكرمان (Eckermann)، وأحمي نفسي من تعاليم هذا العصر التي يقدمها لنا مرتزقة اللحظة. إن عددًا نادرًا من الأحياء يستحقون الحياة إذا ما وازنّاهم بهؤلاء الأموات! ولعمري إن حياة هذا العدد الكبير وموت هذا العدد الصغير من الناس النادرين حقيقة همجية. إن هذا يعني غباءً لا يمكن إصلاحه، وهو تأكيد أخرق على "كان يومًا ما هكذا" في مقابل الأخلاق التي تقول: "لا يتوجب أن يكون الأمر على هذه الحال". بل إنه ضد الأخلاق؛ إذ كيفما كانت الفضيلة التي نريد أن نتحدث عنها، سواء أكانت العدالة أم الكرم أم الشجاعة أم الحكمة أم التعاطف، فإن الإنسان يكون فاضلاً عندما يثور على القوة العمياء للوقائع، وضد طغيان الواقع، وعلى أن يخضع لقوانين لا علاقة لها بقوانين تلك التحولات التاريخية. إنه يسبح دائمًا ضد الأمواج التاريخية سواءً أتعلق الأمر بمقاومته لرغباته باعتبارها الواقع الغبي الأكثر قربًا من وجوده، أم بأن يفرض الصدق على نفسه في الوقت الذي ينسج فيه الكذب خيوطه البراقة من حوله. وإذا لم يكن التاريخ شيئًا آخر غير هذا "النظام الكوني للعواطف والأخطاء" فيتوجب على الإنسان أن يقرأه بالطريقة التي نصح بها غوته؛ فيرتل كما لو أن التاريخ يصرخ فيه: "كن رجلاً ولا تتبعني!". ولحسن الحظ يحافظ التاريخ أيضًا على ذكرى النضالات

الكبرى ضد التاريخ، أي ضد القوة العمياء للواقع، وهي تضع نفسها عبر ذلك موضع نقد؛ لأنها تُسلط الضوء على الكائنات التاريخية الحقيقية، والتي لم تهتم إلا قليلاً "بما هو قائم"، لكي تتبع في فخار بهيج "ما يجب أن يكون". إنها لا تطلب تشييع جيلها إلى قبره، وإنما خلقَ جيل جديد. إن هذا يدفعهم باستمرار إلى الأمام، وإذا ما جاؤوا إلى الدنيا في وقتٍ متأخر فإن هناك طريقة حياة تسمح بنسيان ذلك، إن الأجيال المستقبلية لن تعرفهم إلا باعتبارهم الأبناء الأبكار للتاريخ.

9

هل يمكننا النظر إلى حقبتنا باعتبارها حقبة الأبناء الأبكار؟ في الواقع إن صخب حسها التاريخي يُعبر عن نفسه بطريقة كونية وغير محدودة بشكل مطلق، بحيث إن ذلك سيجعل الأزمنة المقبلة تحتفي على الأقل بطابعها الطليعي في حال اعتقدنا عمومًا بوجود أزمنة مقبلة مفهومة باعتبارها ثقافة، لكن فيما يتعلق بهذا الاعتقاد بالضبط فإن حالاً من عدم اليقين ما زالت قائمة. وبالقرب من شعور الإنسان المعاصر بالافتخار تقف سخريته من نفسه ووعيه بأنه مضطر إلى الحياة في ظل أجواء يحكمها المعنى التاريخي، ويُلونها الغروب والخوف من عدم قدرته على إنقاذ بعض من آمال الشباب وقواه، والوصول بها إلى المستقبل، هنا وهناك نذهب أبعدَ في الكلبية، ونبرر مجرى التاريخ بل كل التطور الكوني، حتى يتوافق مع استخدام الإنسان المعاصر له وفقًا للمعيار الكلبي: "هكذا توجب على الأمور أن تمضي كما تمضي اليوم، وهكذا يتوجب على الإنسان أن يكون كما هو اليوم وليس من حق أحد أن يتمرد على هذه الضرورة". وإلى هذا الشعور بالارتياح الذي تُوفره هذه الكلبية يهرب ذلك الذي لا يستطيع تحمل السخرية. إليه يهدي العقد الأخير إحدى أجمل اختراعاته؛ إنها العبارة الكاملة والمدورة لهذه الكلبية، والتي تُعبر عن طريق حياته الملائمة للعصر وغير المؤذية: "استسلام الشخصية الكامل لصيرورة العالم".

الشخصية والصيرورة الكونية! الصيرورة الكونية وشخصية البرغوث الأرضي! لو أن المرء لا يُضطر إلى الاستماع باستمرار لمبالغة المبالغات هذه: عالم، عالم، عالم، ذلك أن كل واحد منّا يتوجب عليه الحديث عن الإنسان، الإنسان، الإنسان فقط. ورثت اليونان والرومان؟ ورثت المسيحية؟ كل هذه الأشياء تبدو كما لو أنها غير موجودة لدى هؤلاء الكلبيين، لكن كورثة لصيرورة العالم، قمم تاريخ العالم وأهدافه! معنا كل ألغاز المصير الإنساني وحلّها عمومًا، والذي يعبر عن نفسه في الإنسان الحديث، الثمرة الأكثر نضجًا على شجرة المعرفة! إن هذا ما أسميه بهجة متورمة، وتلك هي الخاصية التي نتعرف من خلالها على الأبناء الأبكار لكل الأزمنة حتى وإن كانوا قد وصلوا متأخرين.

لم يسبق للاعتبارات التاريخية -وإن في الحلم- أن حلقت إلى أبعد من هذا الحد، وأضحى تاريخ البشر الآن استمرارًا لتاريخ الحيوان والنبات، بل حتى في الأعماق الأكثر ظلمة للبحار، فإن العالم التاريخي سيجد آثار نفسه على شاكلة مخاط حي، وفي افتتان كما لو أن الأمر يتعلق بمعجزة أمام الطريق العظيم الذي قطعه الإنسان تنقلب النظرة حين تتأمل هذه المعجزة الأكثر روعة، وأعني الإنسان الحديث نفسه، هذا القادر على رؤية الطريق بأكمله دُفعة واحدة، إنه يقف في جلال وفخار فوق أهرام صيرورة العالم واضعًا في القمة عُصارة معرفته، ويبدو كأنه يخاطب الطبيعة المنصتة من حوله: "لقد وصلنا إلى هدفنا، نحن الهدف، نحن اكتمال الطبيعة". أيها الأوروبي المتكبر من القرن التاسع عشر: إنك متسرع للغاية! علمك لم يُكمل الطبيعة وإنما قتل طبيعتك، لِتوازنْ مرة بين عُلوّك كعالم وعمقك كفاعل، طبعًا أنت تتسلق شمس العلم المُشعة باتجاه السماء، لكنك تهوي أيضًا إلى الفوضى. إن طريقة مَشيِك -وأعني أن تتسلق كعالم- ستكون وبالاً عليك؛ فالأرض من تحت قدميك ستتقهقر إلى المجهول؛ إذ لا توجد دعامات أخرى لحياتك، وحدها خيوط العنكبوت التي

تمزقها كل حركة جديدة لمعرفتك. لكني لن أقول كلمة جدية عن ذلك أكثر مما قلت؛ وذلك لأنه من الممكن أن أقول كلمة مفرحة.

إن التشتيت المسعور والطائش لكل الأسس، وتحلّلها في مد وجزر أبديين، والتهتك المستمر، وفرض الطابع التاريخي على الحياة من طرف الإنسان الحديث، إن عملية تشبيك كل ما حدث وتأريخه -هذه العملية التي لا تعرف التعب- من طرف الإنسان المعاصر -العنكبوت الكبير في عجرة النسيج الكوني- أمر قد يشغل الأخلاقيّ والفنان والرجل التقيّ، وبالطبع رجل الدولة أيضًا، ويبعث الحزن في نفوسهم، لكن ذلك عليه اليوم أن يُسلينا ونحن نرى كل ذلك ينعكس في المرآة السحرية اللماعة للفيلسوف الساحر، والذي وصل الزمن لديه إلى درجة الوعي الساخر من ذاته، بل بشكل واضح "حد الفجور". لقد أكد هيغل ذات مرة أنه حين تهتز الروح نهتز نحن الفلاسفة معها. لقد قامت حقبتنا بهزة نحو السخرية من ذاتها. أُنظروا، ها هو السيد فون هارتمان (Von Hartmann) قد اهتز بدوره أيضًا، وكتب فلسفته الشهيرة عن اللاوعي، أو حتى نتكلم بشكل أوضح: فلسفته عن السخرية اللاواعية. نادرًا ما قرأنا اختراعًا أكثر بهجة وفلسفة أكثر خبثًا ممّا يقدمه هارتمان. من لا ينوّره هارتمان حول المصير، ومن لا ينظمه داخليًا فهو ناضج فعلاً للاندثار. إن بداية الصيرورة الكونية وهدفها منذ اللعثمات الأولى للوعي وحتى العودة إلى العدم تنضاف إليها المهمة المرسومة بدقة لجيلنا في هذه الصيرورة الكونية، كل ذلك يتم عرضه باعتباره يسيل من منبع إلهام اللاوعي، ويلمع في ضوء نهايات العالم، وكل ذلك يتم تقليده في زيف وجدية ساذجة، كما لو أن الأمر يتعلق فعلاً بفلسفة جدية، وليس بفلسفة للضحك. ومثل هذا الكل يقدّم خالقه كواحد من أوائل الفلاسفة الساخرين في كل الأزمنة. لنضحِّ به على مذبحه هو مخترع هذا الطب الكوني الحقيقي، لنضحِّ بخصلة شعر إذا أردنا أن نسرق واحدة من عبارات شلايرماخر (Schleiermacher) المحببة إلى قلبه، فأي دواء يمكن أن يكون أكثر

فائدة ضد هذا الإفراط في الثقافة التاريخية من هذه المحاكاة الساخرة لتاريخ العالم من طرف هارتمان؟ وإذا ما أراد المرء التعبير في جفاف عمّا أعلنه هارتمان فيمكنه القول: إنه يعلن لنا أن زمننا يتوجب أن يكون ما هو عليه إذا ما أرادت البشرية يومًا وفي جدية أن تشبع من هذا الوجود. إنه أمر نعتقده من صميم قلبنا أن هذا التعظيم المرعب للزمن، وطقطقة العظام القلقة تلك التي وصفها دافيد ستراوس (David Strauss) في سذاجة مثل الواقع الأكثر جمالاً لا يتم تبريرها عند هارتمان من الخلف فقط، ولكن أيضًا من الأمام. ومنذ يوم الحساب الأخير يترك المهرج ضوءه يشع فوق زمننا؛ فيظهر أنه زمن جيد جدًّا لذلك الذي يريد أن يتألم بقوة من مشاكل الحياة، والذي لا يستطيع أن يرغب بسرعة كافية بقدوم يوم الحساب. أجل، إن هارتمان يسمي هذا العمر الذي تقترب منه البشرية بالكهولة، لكن وفقًا لتوصيفه فهو يمثل الوضع الأكثر سعادة، حيث لا نعثر إلا على "رداءات جيدة"، وسيصبح الفن "ما هو لدى تاجر البورصة البرليني مسرحٌ هزليٌّ"، حيث "لم يعد الزمن بحاجة إلى العبقرية؛ لأن ذلك يعني أن نرمي باللآلئ أمام القذارة"، ولأن الزمن تجاوز المرحلة التي يناسبها العباقرة إلى مرحلة أكثر أهمية، وهي مرحلة التطور الاجتماعي، حيث كل عامل "يعيش حياة هنيئة بسبب زمن العمل اليومي الذي يترك وقتًا كافيًا لتكوينه الثقافي".

يا كبير المهرجين، لعمري إنك تعبر عن حنين الإنسانية الراهنة، لكنك تعرف في الآن نفسه أي شبح ينتظر البشرية عند نهاية كهولتها كنتيجة لهذا التطور الثقافي نحو رداءة جيدة: إنه الاشمئزاز. ويبدو أن كل شيء يمضي إلى سيّئ، ولكن في المستقبل ستمضي الأمور إلى ما هو أسوأ. "من الواضح أن المسيح الدجال يوسّع أكثر فأكثر من مجال تأثيره"، لكن يتوجب أن تكون الأمور هكذا وتمضي بهذه الطريقة، فعبر ذلك نكون في الطريق الأفضل الذي سيقودنا إلى الاشمئزاز من كل وجود. "لنتقدم إذن في هذه الصيرورة الكونية مثل عُمال في مزارع عنب الإله، فهذه الصيرورة

وحدها تستطيع أن تقودنا إلى الخلاص!". عنب الإله! الصيرورة! إلى الخلاص! من لا يرى ويسمع هنا صوت الثقافة التاريخية التي لا تعرف سوى كلمة "المصير"، هذه الثقافة التاريخية التي تقنَّعت هنا عن قصد بالقناع المُشوّه والمُرعب للمحاكاة السّاخرة، حتى تقول من خلال وجهها المضحك الأشياءَ الأكثرَ سوءًا حول نفسها؟ إذ ما الذي يطالب به فعلاً هذا النداء المضحك الأخير من العمال في مزارع العنب؟ في أي مهمة يتوجب عليهم المُضي قدمًا؟ أو حتى نطرح السؤال بطريقة أخرى: ذاك الذي يملك الثقافة التاريخية، هذا الكائن الحديث الذي يؤمن في تطرفٍ بالمصير، والذي يسبح ويغرق في نهر الصيرورة، ما الذي تبقى له أن يعمل حتى يقطف يومًا حصاد هذا الاشمئزاز والعنب الشهي لهذه المزرعة؟ لا شيء سوى أن يستمر في العيش كما عاش حتى الآن، وأن يستمر في الحب كما أحب حتى الآن، وأن يستمر في قراءة الجريدة التي قرأها حتى اليوم، ففي نظره لا توجد سوى خطيئة واحدة، وهي أن يعيش بطريقة مختلفة عن الطريقة التي عاش بها حتى الآن. أما كيف عاش حتى الآن فهو ما تُخبرنا به صفحة شهيرة، مطبوعة في حروف كبيرة، ومكتوبة بأسلوب مقتضب، وهو ما دفع بأبطال الثقافة الحالية إلى السقوط في نشوة عمياء وفي حماس أعمى؛ لأنهم اعتقدوا أنهم يقرؤون في هذه الصفحة تبريرًا لما فعلوه حتى الآن، وأعني تبريرًا ينيره ضوء نهايات العالم. فاللاوعي الساخر يُطالب كل فرد "بالتخلي النهائي عن الشخصية لمصلحة صيرورة العالم من أجل الوصول إلى الهدف الذي رسمته الصيرورة، وهو الخلاص الكوني"، أو حتى نُعبر عن ذلك بشكل أوضح: "إن تأكيد إرادة الحياة يتم الحديث عنه مؤقتًا مثل الشيء الوحيد المعقول؛ لأنه عبر الخضوع التام فقط للحياة وآلامها، وليس عبر التخلي الفردي الجبان عنها أو عبر الانسحاب سنتمكن من فعل شيء لمصلحة صيرورة العالم...". "إن التطلّع إلى النفي الشخصي للإرادة هو أيضًا مُجردٌ من المعنى ولا فائدة منه، بل أكثر عبثًا من الانتحار".

"إن القارئ الذي يستطيع التفكير سيفهم دون حاجة إلى توضيحات أخرى كيف تنتظم فلسفة عملية شُيدت على هذه المبادئ، كما سيفهم أن هذه الفلسفة لن تتضمن أي بذرة للانقسام، بل إنها ستصل إلى مصالحة كاملة مع الحياة". إن القارئ الذي يحسن التفكير سيفهم ذلك، لكن يمكن فهم هارتمان بشكل سيئ! وكم هو مضحك جدًّا فهمه بشكل سيئ! هل يتوجب أن يكون الألمان المعاصرون غايةً في اللطف؟ يرى إنجليزي فاضل أن "لطف الإحساس" ينقصه، بل إنه يجرؤ على القول: "في العقل الألماني يبدو أن هناك شيئًا ما أخرق ومتبلد ودون لباقة وحزين"، فهل يمكن لأكبر ساحر ألماني أن يحتج على ذلك؟ إننا نقترب في الحقيقة وفقًا لهذا التوضيح الذي قدمه من "هذا الوضع المثالي الذي ستصنع فيه الإنسانية تاريخها بشكل واعٍ"، لكن يبدو أننا ما زلنا بعيدين عن هذا الوضع الذي لربما هو الأكثر مثالية، والذي ستقرأ فيه الإنسانية في وعي كتاب هارتمان. وإذا ما وصلنا إلى هنا فلن يترك أحد كلمة "صيرورة العالم" تمر بين شفتيه دون أن ترتسم ابتسامة عليهما. إن المرء سيتذكر حينها الزمن الذي كان يصغي فيه إلى الإنجيل الساحر لهارتمان، مع كل سذاجة ذلك "العقل الألماني"، بل مع "الجدية المشوهة للبومة"[1] كما قال غوته، ونمتصه ونحاربه، ونقدسه وننشره، ونُعلنه قديسًا. لكن على العالم أن يتقدم إلى الأمام؛ فالوضع المثالي لا يمكن أن نحلم به فقط، بل يتوجب أن نناضل لأجله، وعبر الفرح فقط يمر الطريق إلى الخلاص من جدية البومة المبهمة، وسيأتي زمن يُحجم فيه الإنسان في حكمة عن كل تكوينات صيرورة العالم، أو أيضًا عن كل التاريخ الإنساني، زمن لن ننظر فيه ألبتة إلى الحشود، ولكن سنعود فيه إلى الأفراد الذين سيكونون نوعًا من الجسر فوق النهر المعتم للصيرورة. إن هذا لا يعني أن الأفراد سيواصلون الصيرورة، بل إنهم سيعيشون خارج الزمن المعاصر في الآن نفسه، وبفضل التاريخ الذي يسمح بهذا النوع من التشارك سيعيشون مثل

1 البومة رمز الحكمة في الثقافة الغربية.

"جمهورية للعباقرة"، تلك التي تحدث عنها مرة شوبنهاور، وسينادي عملاق على آخر عبر المسافات المقفرة للزمن دون أن يسمحوا للغط الأقزام الذي يدب تحت أقدامهم بإزعاجهم، وسيواصلون أحاديثهم الروحية الراقية. إن مهمة التاريخ ستكمن في الوساطة بينهم، وأن تدفع دائمًا إلى خلق رجال كبار وأن تمنحهم القوة. لا، إن هدف الإنسانية لا يمكن أن يكمن في النهاية، بل في أمثلتها الأكثر سموًّا فقط، وفي المقابل ستردُّ شخصيتنا المرحة بجدلها الذي يستحق الإعجاب، والذي هو حقيقي أيضًا بالدرجة التي يستحق بها مُعجبوه الإعجاب: "ليس صحيحًا أن يكون هناك انسجام مع فكرة التطور إذا ما منحنا لصيرورة العالم عُمرًا زمنيًّا غير محدود؛ لأن ذلك يجعل من الضروري أن يكون كل تطور محتمل قد تحقق، وهذا ليس واقع الحال" (آهٍ أيها المهرج!). "كما إنه لا يمكننا أن نمنح هذه الصيرورة مدةً غير محدودة في المستقبل؛ لأن ذلك يعني في كلتا الحالين إلغاء فكرة التطور نحو هدفٍ" (آهٍ مرة أخرى أيها المهرج!)، حينها ستشبه صيرورة العالم العمل الذي كانت تقوم به بنات داناوس (Danaides)[1]، لكن النصر النهائي للمنطقي على اللامنطقي (آهٍ يا مهرج المهرجين!) "عليه أن يتطابق مع النهاية الزمنية لصيرورة العالم مع يوم الحساب". لا، أيها العقل الواضح والمُتهكم، فما دام حُكمُ اللامنطقي -كما هي الحال

1 داناوس ملك إغريقي أسطوري حكم مصر، (أسطورة مشتقة من أساطير إغريقية قديمة عدة)، وكتب عنه الشاعر الإغريقي المشهور هوميروس. كانت له خمسون بنتًا من نساء عدة، وكان لأخيه التوأم أيجيبتوس خمسون ابنًا. كان يجب على بنات داناوس الزواج من أبناء عمهن الخمسين بناءً على رغبته، لكن داناوس وبناته رفضوا هذا الأمر، وتوجهوا للملك أرقوس (مدينة إغريقية)، شعر أيجيبتوس بالغضب الشديد ولحق بهم مع أبنائه، وافق داناوس بعد ذلك على مضض وأوصى بناته بقتل أزواجهن. كلهن ما عدا واحدة قتلن أزواجهن ليلة الزفاف، ليحكم عليهن بنقل الماء من النهر إلى إناء كبير بواسطة جرار مثقوبة إلى الأبد، والتي لم تقتل زوجها اسمها هايبرمنيسترا -ويعني التودد المفرط- ساعدت زوجها على الهرب، وعندما علم أبوها بذلك غضب غضبًا شديدًا، وقدمها للمحاكمة بتهمة العصيان، وتمت تبرئتها، وعاد زوج هايبرمنيسترا وقتل داناوس انتقامًا لإخوته. (المترجم).

اليوم- إلا كان في الإمكان الحديث مثلاً كما تفعل عن "صيرورة العالم" في إجماع عام، وما زال يوم الحساب بعيدًا؛ ذلك أن الوضع ما زال بهيجًا على هذه الأرض، وبعض الأوهام ما زالت تُزهر مثل ذلك الوهم الذي يتعلق بشخصك، والذي يعتقد به مُعاصروك. إننا ما زلنا بعيدين عن النضج حتى نسقط في عدمك؛ لأننا نعتقد أن الحياة ستكون أكثر بهجة حين نكون قد بدأنا بفهمك أنت أيها اللاوعي غير المفهوم. لكن إذا كان على الاشمئزاز أن يأتي على الرغم من ذلك بقوة كما تنبأت بذلك لقرائك، وإذا ما ظهر أن معك حقًّا فيما يتعلق بالأوصاف التي أطلقتها على الحاضر والمستقبل، ولا أحد احتقر الاثنين أكثر منك إلى حد الاشمئزاز، فلهذا أنا مستعد -عن طيب خاطر وبالشكل الذي اقترحته- للتصويت مع الأغلبية بأن يندحر عالمك في منتصف ليلة السبت القادم، وأن ينتهي مرسومنا بهذه الخلاصة: من يوم غد لن يوجد شيء اسمه زمن، والجرائد ستتوقف عن الصدور. لكن من المحتمل ألا يكون لخطوتنا نتائج تُذكر، وأننا أصدرنا عبثًا هذا المرسوم. لكن ذلك سيعني أننا لن نعدم الزمن للقيام بتجربة أكثر جمالاً. سنحمل ميزانًا ونضع في كفةٍ لاوعيَ هارتمان، وفي الكفة الأخرى الصيرورة الكونية لهارتمان، هناك أناس يعتقدون بأنه سيكون للكفتين الوزن نفسه؛ ذلك أنه في كل كفة تُوجد الكلمة السيئة نفسها، والمزحة الجيدة ذاتها، وإذا ما تم فهم مزحة هارتمان فلا أحد سيحتاج حينها إلى كلمة هارتمان عن "صيرورة العالم" إلا بداعي المزاح. وفي الواقع فإن الزمن قد حان للتحرك بكل جيوش الشر الساخرة ضد فسق الحس التاريخي، والرغبة المتهورة في الصيرورة، وضد الرجاء المجرد من الوعي لكل الرؤى. ويجب أن نقول في مديح كاتب فلسفة اللاوعي: لقد نجح في الإحساس بقوة بما هو مضحك في التصور عن "صيرورة العالم"، وأن يجعلنا نُحسه بحدة أكبر عبر الجدية الخاصة لعرضه. ما جدوى "العالم"؟ ما جدوى "الإنسانية"؟ هذا أمر يتوجب ألا يشغلنا في الوقت الراهن إلا إذا كنّا نريد القيام بمزحة؛ ذلك أن المبالغة في قوة الزواحف

البشرية الصغيرة هي الشيء الأكثر مزاحًا وبهجةً على خشبة العرض. لكن لماذا أنت هنا أيها الفرد؟ اسأل نفسك عن ذلك، وإذا لم يستطع أحد أن يجيبك فحاول أن تجد تبريرًا لوجودك بشكل بعدي عبر فرض هدفٍ على حياتك، "سببًا" ما، "سببًا" ساميًا ونبيلاً، وسيأخذك هذا السبب إلى الهلاك. ذلك أني لا أعرف هدفًا للحياة أفضل من الموت عن طيب خاطر من أجل العظيم والمستحيل. ولكن إذا ما تم إلقاء الأفكار المتعلقة بالمصير العظيم، وبميوعة المفاهيم والنماذج والأنواع، وغياب كل اختلاف بين الإنسان والحيوان ـ وهو مذهب أظنُّه صحيحًا ولكنه قاتلٌ ـ مع جنون التثقيف الذي يحكم اليوم إلى الشعب ولجيل آخر فليس على أحد أن يندهش إذا ما هلك هذا الشعب بسبب الأنانية والنذالة. سيبدأ بالتفتت والتوقف عن أن يكون شعبًا، وعوضًا عنه سنراقب -لربما- على خشبة المستقبل تشابكًا للأنانيات الفردية، وتآخيًا من أجل الاستغلال البشع لمن هم ليسوا بإخوتنا، ومخلوقات شبيهة للنذالة النفعية، ومن أجل إعداد هذه الكائنات سيكون كافيًا الاستمرار في كتابة التاريخ من وجهة نظر الحشد، والبحث في التاريخ عن هذه القوانين التي يمكننا أن نستخلصها من حاجات الحشود، أي عن حوافز الطبقات الأكثر انحدارًا في البناء الاجتماعي. من جهتي يبدو لي أن الحشود لا تستحق الانتباه إلا من ثلاث وجهات نظر: إنها أولاً نسخ غير واضحة عن عظمائها، وقد نسخت على ورق سيئ وبصفائح قديمة، وهي ثانيًا المقاومة التي يواجهها الرجال العظام، وفي النهاية الوسائل التي يستعملونها، وفي النهاية ليأخذهم الشيطان والإحصائيات! كيف استدلت الإحصائيات على وجود قوانين في التاريخ؟ قوانين؟ أجل، إنها توضح كيف أن الحشد سوقي وموحد بشكل مقزز. هل يتوجب علينا أن نسمي قوى الغباء والسخف والحب والجوع بالقوانين؟ إننا نريد أن نقرّ بذلك، لكن هناك أمر مؤكد، طالما كانت هناك قوانين في التاريخ فإن هذه القوانين لا قيمة لها، والتاريخ لا قيمة له أيضًا. لكن بالضبط طريقة كتابة التاريخ هذه ما تحظى اليوم بسمعة دولية، هذه الطريقة التي تعدّ الدوافع

الكبرى للحشود أهم شيء في التاريخ الذي ينظر إلى كل الرجال العظماء باعتبارهم التعبير الأفضل عن الحشود، مثل فقاعة الهواء الصغيرة التي أصبحت مرئية في رغوة الأمواج. إن على الحشد أن يخلق انطلاقًا من نفسه ما هو عظيم، وأن يخرج النظام من رحم الفوضى، وفي النهاية سننشد نشيدًا في مديح الحشد الخلاق، وسنسمي كبيرًا خلال وقتٍ ما كلَّ ما أثار الحشد، وكل ما كان كما نقول: "قوة تاريخية". لكن ألا نخلط هنا إراديًّا الكمّ بالكيف؟ وإذا ما وجد الحشد الأخرق فكرةً ما -فكرةً دينيةً مثلاً- أنها ملائمة له، فَعَمِدَ إلى الدفاع عنها بشراسة، وجرها معه عبر القرون حينها فقط يمكن النظر إلى مؤسسي تلك الفكرة ومخترعيها باعتبارهم شيئًا كبيرًا. لماذا إذن؟ لأن النبيل والسامي لا يؤثر ألبتة على الحشود. فالنجاح التاريخي للمسيحية، وقوته التاريخية، وجلده واستمراريته في الزمن، كل ذلك لا يؤكد شيئًا لحسن الحظ فيما يتعلق بعظمة مؤسسها، بل بالأحرى يمكن استعماله ضده؛ فبينه وبين هذا النجاح التاريخي توجد طبقة غاية في الأرضية والظلمة من الرغبة والخطأ والجشع إلى السلطة والشرف، وتوجد قوى الإمبراطورية الرومانية التي تواصل تأثيرها، طبقة وهبت المسيحية ذوقها الأرضي وبقيتها الأرضية، إنها تلك القوى التي سمحت باستمرار المسيحية على هذه الأرض، ووهبتها الاستقرار. لكن لا يتوجب أن ترتبط العظمة بالنجاح، وديموستينيس (Demosthenes)[1] يمتلك تلك العظمة، حتى إن لم يكن قد كلله النجاح. إن الأتباع الأكثر نقاءً وصدقًا للمسيحية شككوا دومًا في نجاحها الزمني، أو ما تمت تسميته "قوتها التاريخية"، وعمدوا إلى عرقلته بدلاً من دعمه؛ لأنهم حرصوا على التموقع خارج "العالم"، ولم يأبهوا بـ"صيرورة الفكرة المسيحية"، ولهذا لم يعرفهم التاريخ ولم يذكرهم. وحتى أتكلم من وجهة نظر مسيحية سأقول إن الشيطان من يحكم العالم، وإنه سيد النّجاح والتقدم. إنه يمثل في كل القوى

1 خطيب وسياسي يوناني، حكم عليه بالإعدام في العام 323 قبل الميلاد ونُفذ فيه بواسطة شرب السم. (المترجم).

التاريخية القوة الحقيقية، وفي الغالب ستستمر الأمور على هذه الحال، حتى إذا كان وقع سماع ذلك أمرًا محرجًا لدى حقبة تعودت على تأليه النجاح والقوة التاريخية. لقد تدربت على تسمية الأشياء بأسماء جديدة، بل إعادة تعميد الشيطان نفسه.

لقد دقت ساعة خطر كبير، والبشر يقتربون من الاعتقاد بأن أنانية الأفراد والجماعات والحشود كانت في كل الأزمنة رافعة الحركات التاريخية، لكن في الوقت نفسه لا نشعر بالقلق من هذا الاكتشاف ونحن نصدر القرار بأن على الأنانية أن تكون إلهنا. وبهذا الدين الجديد نستعد دون إخفاء نوايانا لنبني التاريخ المستقبلي على الأنانية، ونطالب بأن تكون أنانية حكيمة فقط، تفرض على نفسها بعض القيود من أجل أن يدعم استمراريته، وهي أنانية تدرس التاريخ حتى تتعرف إلى الأنانيات الغبية. ومن خلال هذه الدراسة سنتعلم بالضبط أن الدولة تملك مهمةً خاصةً جدًّا في النظام الكوني الذي يتوجب تأسيسه، وستصبح الدولة حامية كل الأنانيات الذكية من أجل حمايتها بعنفها العسكري والأمني ضد الانفجارات الرهيبة للأنانية الغبية. ولتحقيق الهدف نفسه يتم إدخال التاريخ -وبالطبع كتاريخ للحيوان والإنسان- بعناية في الطبقات الشعبية والحشود العمالية الخطيرة؛ لأن المرء يعرف أن حبة صغيرة من الثقافة التاريخية كفيلة بفتح الباب على مصراعيه أمام الغرائز والشهوات الوحشية والبليدة، أو قيادتها في طريق الأنانية الأكثر تهذيبًا. وباختصار -وحتى نتكلم مع فون هارتمان- فإن الإنسان يعبر الآن عن اهتمامه "بمنشأة قابلة للسكن في الوطن الأرضي تنظر إلى المستقبل في تروٍّ". إنه الكتاب نفسه الذي يسمي هذه الحقبة "بالعمر الرجولي للإنسانية" متهكمًا عبر ذلك بما نسميه اليوم "إنسانًا"، كما لو أنه لا يمكننا أن نفهمه إلا كأناني محبط. لكنه يتنبأ أيضًا -بعد مرور عصر الرجولة- بعصر الشيخوخة، لكن هدف هذه النبوءة على ما يبدو هو التعبير عن تهكمه بشيوخنا المعاصرين لنا؛ ذلك لأنه يتحدث عن النضج التأملي الذي "ينظرون به إلى آلام حياتهم الماضية وعواصفها الهوجاء، وتفاهة ما يعتبرونه حتى الآن هدف

جهودهم". لا، إن العصر الرجولي لمثل هذه الأنانية المكّارة والتي تربت على الثقافة التاريخية يتوافق مع شيخوخة تتمسك بالحياة في خسّة وجشع لا يشبعه شيء، ومن ثم فهذا المشهد النهائي:

"الذي ينهي هذه الدراما التاريخية الغريبة

والملأى بالأحداث عبارة عن طفولة ثانية،

حال من النسيان التام يصبح فيها الإنسان فاقد

الأسنان فاقد العينين فاقد الذوق، فاقدًا كل شيء"[1].

وسواءً أكانت الأخطار المُحدقة بحياتنا وثقافتنا قادمة من هؤلاء الشيوخ الشرسين الذين لا أسنان ولا ذوق لهم، أم من "الرجال" الذين تحدث عنهم هارتمان فإننا إزاءَهم جميعًا نريد أن نعض بالنواجذ على حقوق شبابنا، ونناضل عن المستقبل ضد من يريد تحطيم صوره. لكن هذه المعركة ستجعلنا نقوم بملاحظة غاية في السوء: وهو أننا ندعم ونشجع ونستعمل عن عمد العادات السيئة للحس التاريخي، التي يعاني منها الحاضر.

إننا نستعمله ضد الشباب من أجل ترويض الشباب على تلك الأنانية التي يهدف إليها الجميع، من أجل كسر الكراهية الطبيعية للشباب عبر تفسير علمي-سحري لتلك الأنانية الرجولية وغير الرجولية. إننا نعرف ما الذي يستطيعه التاريخ حين نهبه وزنًا أكبر، إننا نعرف ذلك بدقة: إنه يقتلع الغرائز الأكثر قوة للشباب: الحماس، والتحدي، ونسيان الذات والحب، ويضعف شعورهم الحماسي بالعدالة، ويقمع ويكبت رغبة الغرائز في الوصول في هدوء إلى النضج عبر غريزة مضادة تطالب الشباب بالإسراع في الوصول إلى النضج، حتى يمكن بسرعة استعمالهم والاستفادة

1 سطور من مسرحية شكسبير (*As you like it*) (كما تحبها).

منهم، ويصيب صدق العاطفة وشجاعتها لديهم عبر الشك، بل إنه يغش الشباب في أجمل حق يمتلكونه، بأن ينزع منهم قوة الاعتقاد بفكرة كبيرة، والرُّقي بها انطلاقًا من أنفسهم إلى فكرة أعظم. لقد رأينا أن إفراطًا معينًا في الدراسات التاريخية قادرٌ على كل ذلك؛ لأنه عبر الإرجاء المستمر لأفق الرؤى، وعبر القضاء على الهواء الذي يحيط به لا يسمح للشباب بالإحساس والعمل بشكل لا تاريخي، فيغادر الإنسان ذاك الأفق اللانهائي، وينسحب إلى داخله، إلى الدائرة الأنانية الأكثر صغرًا، ويضربه الجفاف والموت. أجل، قد تصل به هذه الدراسات التاريخية إلى الفطنة، لكنها لن تقوده ألبتة إلى الحكمة. لقد أضحى يقبل التفاوض، يحسب ويتصالح مع الوقائع، لا يغضب، يومئ بعينه ويدرك كيف يبحث عن منفعته أو منفعة فريقه في منفعة غيره أو مثلبته، ينسى الخجل السطحي، ويتحول بالتدريج إلى "رجل" هارتمان، أو "شيخه". هكذا يُراد له أن يصير، وهنا يكمن معنى: "التخلي الكامل عن الشخصية لمصلحة صيرورة العالم"، من أجل تحقيق خلاص العالم، كما يؤكد لنا ذلك هارتمان الخبيث. لكن إرادة "رجال" هارتمان و"شيوخه" وهدفهم ليس ألبتة تخليص العالم؛ لأنه لا ريب لن يتم تخليص العالم إلا إذا تخلَص من هؤلاء الرجال والشيوخ، حينها فقط ستتحقق مملكة الشباب.

10

في هذا المكان وأنا أفكر في الشباب تجدني أصرخ: الأرض! الأرض! كفانا وأكثر من هذه الرحلات التائهة في البحار الغريبة المعتمة! الآن فقط تظهر لنا اليابسة. وكيفما كانت هذه اليابسة يتوجب علينا أن نرسو هنا، فأسوأ ميناء أفضل من العودة إلى ذلك الشك واليأس اللانهائيين. لنتمسك أولاً بالأرض، وسنعثر في المستقبل على الموانئ الجيدة، ونسهل الرسو على من سيأتي من بعدنا.

خطيرة ومثيرة كانت هذه الرحلة، ولكم نحن بعيدون الآن عن تلك النظرة الهادئة التي رافقت في البداية سفننا إلى عرض البحر. وفي اقتفائنا أخطار التاريخ تعرضنا أكثر من أيٍّ كان لكل هذه الأخطار. فنحن أيضًا نحمل آثار الآلام التي ألمت بإنسان العصور الحديثة بسبب إفراطٍ في الدراسات التاريخية، وتظهر هذه المقالة -بشكل لا أريد أن أخفيه في نقدها الحاد، وروحها الإنسانية الشابة، وفي انتقالها المستمر من السخرية إلى الكلبية، ومن الفخر إلى الشك- طابعَها الحديث، وأعني طابع الشخصية الضعيفة. وعلى الرغم من كل ذلك فعندي ثقة بالقوة الملهمة التي بدلاً من العبقرية تقود مركبي، وعندي ثقة بالشباب، وأعتقد أنها أحسنت قيادتي، وهي تدفعني الآن إلى الاحتجاج على التربية التاريخية للشباب مطالبًا بأن يتعلم الإنسان قبل كل شيء الحياةَ، وألا يستعمل التاريخ إلا في خدمة هذه الحياة. يتوجب أن يكون المرء شابًّا حتى يفهم هذا الاحتجاج، ولكن بسبب هذه الشيخوخة التي تضرب اليوم شبابنا في سن مبكرة، لن يتمكن الإنسان من أن يكون شابًّا بما فيه الكفاية لكي يشعر بالشيء الذي نُعبر الآن عن احتجاجنا ضده. وحتى يتم فهمي بشكل جيد أريد أن أسوق مثالاً هنا: في ألمانيا وقبل أكثر من قرن قليلاً استيقظت غريزة عند بعض الشباب، تلك التي نسميها شعرًا. هل يعني هذا أن الجيل الذي سبقهم لم يتحدث في زمنه ألبتة عن فنٍّ لربما لم يفهمه وظل غريبًا عنه؟ نعرف أن العكس هو الصحيح. لقد كانوا يفكرون، ويكتبون ويتخاصمون في موضوع "الشعر" ما أمكنهم ذلك، ولكن بكلمات عن كلمات وكلمات وكلمات. لكن يقظة هذه الكلمة للحياة لم تمثل في الآن نفسه موتًا لصناع الكلام هؤلاء، فهم ما زالوا في فهم معين يعيشون حتى اليوم، إذ كما يقول جيبون (Gibbon)[1]: لا نحتاج إلا إلى الزمن، ولكن إلى كثير من الزمن لكي ينهار عالم ما، ولن نحتاج أيضًا إلا إلى الزمن، ولكن إلى زمن أكثر حتى يندحر في ألمانيا "بلد التطور التدريجي" مفهومٌ خاطئ. لكن على الأقل نعثر اليوم

---

1 مؤرخ إنجليزي (1734-1794).

على مئة من البشر -موازنة بالقرون السابقة- تعرف ما الشعر. ولربما سنجد بعد قرون مرة أخرى مئة من الناس وقد تعلموا خلال ذلك ما الثقافة. إن الألمان هم حتى الآن بلا ثقافة، وذلك مهما أفرطوا في الكلام والتباهي، ففي نظرهم سيظهر لهم ارتياح الألمان لثقافتهم أمرًا لا يقبل التصديق، ومجرد هراء بالقدر نفسه الذي يظهر لنا اليوم بشأن الكلاسيكية المعترف لها لغوتشيد (Gottsched)[1]، أو التقدير الذي حظي به راملر[2]، الذي كان ينظر إليه باعتباره "بندار الألماني". وسيحكمون لربما على هذه الثقافة باعتبارها نوعًا من علم الثقافة، وأكثر من ذلك مجرد علم خاطئ للغاية، ومُغرق في السطحية. خاطئ وسطحي لأنهم كانوا يتحملون التناقض بين العلم والحياة، ولأنهم لم يُبصروا ألبتة الخاصية المميزة للشعوب الثقافية الحقيقية. لا يمكن للثقافة أن تولد وتنمو وتتفتح إلا في الحياة، في حين أنه عند الألمان يتم تثبيتها مثل وردة من ورق، أو سكبها مثل طلاء من السكر، ولهذا توجب أن تظل دومًا كاذبة وعقيمة. إن تربية الشباب الألماني تنطلق بالضبط من مفاهيم للثقافة خاطئة وعقيمة، فهدفها ليس ألبتة الإنسان المثقف والحر، ولكن العالم رجل العلم، وبشكل أكثر دقة رجل العلم الذي يُصبح مفيدًا في أبكر وقت ممكن، ويظل خارج الحياة حتى يعرف الحياة بشكل أكثر دقة. ونتيجة تلك التربية -إذا ما نظرنا إلى ذلك نظرة تجريبية وعمومية- هي البورجوازي الصغير وثقافته التاريخية-الجمالية المتهاوية. إنه الثرثار الكبير حول موضوعات الدولة والكنيسة والفن. إنه جهاز استشعار لآلاف الأحاسيس، وهو معدة لا تشبع ولا تعرف شيئًا عن الجوع والعطش الحقيقيين. ولا يمكن لأحد أن يحس بأن تربية على هذه الشاكلة بأهدافها ونتائجها تلك هي

1 يوهان غوتفريد غوتشيد (1700 ـ 1766) كاتب ألماني، وعالم لغات ومنظر أدبي.

2 كارل فيلهلم راملر (1725 ـ 1798) شاعر وفيلسوف ألماني كان يلقب بالأحرى بهوراس الألماني وليس ببندار الألماني كما كتب نيتشه. لمزيد من التفصيل:
Deutsche Dithyramben: *Geschichte einer Gattung im 18. und 19. Jahrhundert* للمؤلفة Francesca Fantoni ,2009 ,74.

ضد الطبيعة إلا ذلك الذي لم يصل بعدُ إلى النهاية، والذي ما زالت تتوفر فيه غريزة الطبيعة التي دمرتها في عنف وسطحيةٍ تلك التربية. لكن ذاك الذي يريد أن يُدمر هذه التربية يتوجب عليه أن يُساعد الشباب على الكلام، وأن يضيء اشمئزازهم اللاواعي بضوء مفاهيمه، ويقودهم إلى وعي يتكلم بصوت مرتفع وواضح. لكن كيف الوصول إلى مثل هذا الهدف المُغرق في الغرابة؟ قبل كل شيء بتدمير الاعتقاد بضرورة هذه التربية. ألم يعتقد المرء بعدم وجود إمكانية أخرى سوى واقعنا الحالي المؤسف؟ لنلقِ نظرة على الأعمال المدرسية والتربوية التي تدرس في المعاهد العليا خلال العقود الأخيرة، سنلحظ في دهشة واستياء كيف أنه على الرغم من كل ذلك التعدد في المقررات، ورغم عنف التناقضات فإن المقاصد العامة للتربية واحدة، وهي كيف أن "الرجل المثقف" كما نفهمه اليوم سيتم النظر إليه دون تردد مثل الأساس الضروري والعقلاني لكل تربية مستقبلية. وهكذا سيعبر عن نفسه تقريبًا هذا المذهب الرتيب: سيبدأ الشباب تربيته بتعلم ما الثقافة، ولن يتعلم ما الحياة وتجربة الحياة، وسيتم زرع علم الثقافة في رأسه على شكل علم تاريخي، ما يعني أن دماغه سيمتلئ بكمية كبيرة من المفاهيم المأخوذة من المعرفة غير المباشرة للحقب الماضية والشعوب الغابرة، وليست من التجربة المباشرة للحياة. أمّا رغبة الشاب في تعلم شيء بنفسه، والسماح بنمو نظام حي وكامل من التجارب الشخصية بداخله فمثل هذه الرغبة سيتم تخديرها عبر الادعاء الدسم، الذي يرى أنه بإمكان الشباب أن يلخصوا في دواخلهم وفي سنوات قليلة المعارفَ الأكثر سموًّا وروعةً لكل الأزمنة، وخصوصًا للحقب الكبرى. إنها المنهجية الجنونية التي تقود فنّانينا الشباب إلى غرف الفن وصالات العرض، وليس إلى ورشة المعلم، خصوصًا إلى الورشة الوحيدة للمعلمة الوحيدة التي هي الطبيعة. كما لو أن المرء متجول متعجل في التاريخ، يمكنه أن يتعلم شيئًا من الماضي عن فنونه وأساليبه، وعن إسهامه في

الحياة. وكما لو أن الحياة نفسها لم تكن مهنةً يتوجب تعلمها من أساسها بلا توقف، وممارستها بقوة إذا أردنا منها ألا تفرخ ثرثارين وبُلهاءَ!

اعتقد أفلاطون بضرورة أن تتم تربية الجيل الأول من مجتمعه (في المدينة الفاضلة) بمساعدة كذبة بيضاء قوية، يتوجب على الأطفال أن يعتقدوا أنهم عاشوا من قبل في الحلم تحت الأرض لوقتٍ ما، وأنه تم عجنهم وتشكيلهم من طرف سيد الطبيعة، ومن المستحيل التمرد ضد هذا الماضي، ومن المستحيل الاعتراض على أفعال الآلهة. قانون طبيعي لا ينتهك يقول: إن من ولد فيلسوفًا يحمل في جسده ذهبًا، ومن ولد حارسًا لا يحمل سوى فضةٍ، ومن ولد عاملاً يحمل الحديد والنحاس. وكما إنه من المستحيل خلط المعادن -يوضح أفلاطون- فإنه سيكون من المستحيل قلب نظام الطبقات. والإيمان بالحقيقة الخالدة لهذا النظام أساس هذه التربية الجديدة وأساس الدولة الجديدة. وبالطريقة نفسها تعتقد ألمانيا الحديثة بالحقيقة الخالدة لتربيتها وثقافتها، ومع ذلك فإن هذا الاعتقاد يهوي أرضًا كما كانت ستهوي دولة أفلاطون حين نواجه الكذبة البيضاء بحقيقة بيضاء، وهي أن الألماني لا يملك ثقافة، وذلك لأنه بالنظر إلى تربيته لا يمكنه أن يمتلكها. إنه يريد الوردة دون جذر ودون جذع؟ إذن عبثًا يريدها، وهذه هي الحقيقة البسيطة، حقيقة مقلقة وقاسية، حقيقة بيضاء حقيقية.

ولكن في هذه الحقيقة البيضاء يتوجب تربية جيلنا الأول، ويتوجب عليها لا ريب أن تعاني الآلام الكبرى؛ لأنه عبر هذه الحقيقة يتوجب على هذا الجيل أن يربي نفسه، وأن يربي نفسه ضد نفسه نحو عادة جديدة وطبيعة جديدة، عبر الخروج من طبيعة أولى ومن عادة قديمة بشكل يمكنه من ترديد قول بالإسبانية القديمة: "لتحمني يا رب من نفسي"، أي من طبيعتي التي عُلِّمْتُها. يتوجب أن يمتص هذه الحقيقة قطرة قطرة، مثل دواء مرٍّ وعنيف، وكل فرد من هذا الجيل يتوجب عليه أن يتجاوز نفسه، وأن يحكم على نفسه، والذي سيتحمله بسهولة لو أنه مس بشكل عام

حقبةً بكاملها: نحن بلا تربية، بل أكثر من ذلك أصبحنا عاجزين عن الحياة، عن الرؤية والسماع بشكل بسيط وعادل، وأن نمسك في سعادة ما هو أكثر طبيعية، وإلى اليوم لا نمتلك حتى قاعدة ثقافة؛ لأننا لم نقتنع بعد بأننا في أعماق أنفسنا نمتلك حياة حقيقية مجزأة ومتناثرة هنا وهناك، مقسمة في مجموعها إلى داخل وخارج بشكل نصف ميكانيكي، ومرصعة بالمفاهيم كأنها أسنان تنّين، وهي تخلق أيضًا مفاهيم تنّينيّة، وتعاني من مرض الكلمات، وتعدمها الثقة بإحساسها الخاص، والذي لم يُختم بكلمات بعد، تحسبها مصنعًا جامدًا ومع ذلك نشيطٌ بشكل مخيف لصنع الكلمات والمفاهيم. لربما أمتلك هنا الحق لأقول عن نفسي: أنا أفكر، إذن أنا موجود، وليس: أنا أحيا، إذن أنا أفكر. ضمنت "الوجود" ولكن ألبتة ليست "الحياة" المكتملة والخضراء وإحساسي البدائي يظهر فقط بأني كائن يُفكر، ولستُ ألبتة كائنًا يحيا، وأني لست حيوانًا، ولكنني في أحسن الأحوال كائنٌ مُفكرٌ. أعطوني بدءًا الحياة، وسأعرف كيف أصنع لكم ثقافة! بمثل هذا سينادي كل فرد من هذا الجيل الأول، وكل الأفراد سيتعرفون أنفسَهم في هذا النداء. من إذن يريد أن يهبهم الحياة؟ لن يكون إنسانًا ولا إلهًا، ولكن شبابهم الخاص فقط. لتطلقوا العنان لهذا الشباب، فعبره ستحررون الحياة. ذلك أن الحياة كانت قابعة في سجن فقط، إنها لم تجف ولم تمت بعد. اسألوا أنفسكم!، لكن هذه الحياةَ التي ستحرر مريضة، ويتوجب علاجها؛ إذ تسكنها العديد من الأمراض، وليست ذكرى قيودها من تسبب لها الألم فقط، إنها تتألم وهذا ما يهمنا هنا، إنها تعاني من المرض التاريخي؛ فالإفراط في الدراسة التاريخية أضعف قوى الحياة بشكل جعلها لا تعرف كيف تستخدم الماضي مثل غذاءٍ مُقوٍّ. ألم رهيب، ومع ذلك فإذا لم يمتلك الشباب الموهبة الرؤيوية للطبيعة لم يكن لأحد أن يعرف أنه ألم، وأن جنَة الصحة قد ضاعت. هذا الشباب نفسه من سيخمن أيضًا بالغريزة الشافية للطبيعة نفسها كيف يمكن استعادة هذه الجنة؟ إنه يعرف مراهم المرض التاريخي وأدويته، وهذا الإفراط في الدراسة التاريخية. ما اسم هذه المراهم

وهذه الأدوية؟ لا يجب أن نندهش إذا عرفنا بأنها تحمل أسماء السموم؛ فلقاح ما هو تاريخي هو اللاتاريخي والفوق-تاريخي، وبهذه الكلمات نعود إلى بدايات اعتباراتنا وإلى نقطة ارتكازها، أي إلى كلمة "لا تاريخي"، وأعني الفن والقدرة على النسيان والانغلاق في أفق محدد، وأعني بكلمة "فوق-تاريخي" القوى التي تحول نظرنا عن المصير باتجاه ما يعطي الوجود طابع الخلود والتماثل نحو الفن والدين، أما العلم -ولأنه من يتكلم عن السموم- فإنه يرى في هذه القوة والقوى قوىً متعارضة؛ لأنه يعتبر ملاحظة الأشياء وحدها حقيقية وصحيحة، أي الملاحظة العلمية التي ترى في كل شيء تحوّلاً وتطورًا تاريخيًّا، وليس وجودًا أو أبديّةً. إنها تعيش في تناقض صميميّ مع القوى المُخلدة: قوى الفن والدين، تمامًا كما تكره النسيان وموت المعرفة باحثةً عن إلغاء حدود الأفق لكي تقذف بالإنسان في البحر اللانهائي واللامحدود، بحر المصير المعروف بأمواجه المُشعة، لكن لو أنها استطاعت على الأقل العيش فيه! وكما إن الزلزال يدمر المدن ويمسحها بحيث إن البشر يبنون مُدنهم في خوف فوق أرض بركانية، كذلك تندحر الحياة وتضعف وتفقد الشجاعة حين ينزع زلزال المفاهيم الذي يتسبب به العلم في حرمان الإنسان من كل شعور بالأمان، ومن هدوئه كله، ومن إيمانه بكل ما هو دائم وأبديٌّ. لكن هل يتوجب على الحياة أن تُسيطر على المعرفة والعلم؟ أم على المعرفة أن تسيطر على الحياة؟ أيٌّ من هاتين القوتين يجب أن تكون القوة السامية والمهيمنة؟ لا أحد سيشك في أن على الحياة أن تمتلك القوة الكبرى والمهيمنة؛ لأنّ المعرفة بتدميرها للحياة ستدمر في الآن نفسه نفسَها. إنّ المعرفة تشترط الحياة، ولها مصلحة في المحافظة على الحياة، كما لكُل كائن مصلحةٌ في استمراره، ولهذا فإن المعرفة في حاجة إلى سُلطة تراقبها، وإلى "مذهب صحي للحياة" يقف إلى جانب العلم، وستكون إحدى قواعد هذا المذهب الصحي أن تُعلم الأجيال أن اللاتاريخي وفوق-التاريخي هما الترياق الطبيعي ضد غزو التاريخ للحياة، وضد المرض التاريخي، ومن الممكن أن نتألم -نحن الذين نعاني من

مرض التاريخ أيضًا- من ترياقه، لكن هذا ليس دليلاً ضد نجاعة هذا العلاج الذي اخترناه. وهنا أتعرف مهمةَ هذا الشباب، هذا الجيل الأول من المناضلين وقتلة الثعابين، الذين يرغبون في ثقافة وإنسانية أكثرَ شجاعةً وجمالاً دون امتلاك ما هو أكثر من فكرة رؤيوية عن سعادة هذا المستقبل وجماله. هذا الشباب سيعاني بنفسه من آلام الترياق، ومع ذلك فإنه يعتقد أن بإمكانه الافتخار بأنه يمتلك صحة أكثرَ قوةً، وعمومًا طبيعةً أكثرَ طبيعيةٍ من الجيل الذي سبقه، وأعني من "رجال" الحاضر المثقفين و"شيوخه". أمّا وظيفته فتكمن في زعزعة مفاهيم "الصحة" و"الثقافة" التي يمتلكها هذا الحاضر، وخلق التهكم والحقد ضد هذا المفهوم المسخ والمتعجرف. أمّا العلامة المميزة والضامنة لصحته المفعمة بالقوة، فيتوجب أن تكمن بالضبط في واقع أن هذا الشباب لا يمكنه استعمال أي مفهوم أو كلمة حزبية من تلك المستعملة في اللغة السائدة اليوم من أجل تحديد طبيعته، بل سيكتفي بأن يكون مقتنعًا بقوته الحية والقتالية، وبإحساسه الدائم والسامي بالحياة في كل ساعة. يمكننا أن نعترض ونقول: إن هذا الشباب يمتلك ثقافة، لكن أي شباب نعني بهذا الاعتراض؟ يمكن أن نأخذ عليه خشونته وعصبيته، لكنه ليس بعد شائخًا بما فيه الكفاية وحكيمًا حتى يخلد إلى الاعتدال، ولكن قبل ذلك، هو لا يحتاج إلى تصنُّع ثقافة مُنتهية والدفاع عنها، وهو يتمتع بكل عزاءات الشباب وحقوقه، ومنها حق الصدق الشجاع والمُتهور، والعزاء المتحمس للأمل. هذا الشباب المسكون بالأمل أعرف أنه يفهم عن قرب كل هذه التعميمات، وأن تجاربه الخاصة ستسمح له بترجمتها إلى مذهب خاص به. وليكتفِ الآخرون في الانتظار برؤية مزهريات موصدة فقط، ويمكنهم الاعتقاد بأنها فارغة إلى أن يروا رأي العين وكلهم دهشة أن هذه المزهريات ممتلئة، وأن أحقادًا ومطالبَ وغرائزَ حيويّةً وعواطفَ مخفيةً في هذه التعميمات، وأن هذه العواطف لا يمكنها أن تظل طويلاً مختبئةً. لكن لنبعث بهؤلاء المتشككين إلى الزمن؛ فوحده قادر على كشف النقاب عن كل شيء. أمّا الآن فأتوجه في النهاية إلى هذا

المجتمع المسكون بالأمل، لكي أقُصَّ عليه في نوع من الرّمز طريقةَ شفائه وتحرره من المرض التاريخي، وعبر ذلك أقُص عليه قصته الخاصة حتى اللحظة التي سيتمكن فيها من معاودة إنجاز التاريخ، من أجل استخدام التاريخ من وجهات نظر ثلاث: الأثرية والعادياتية والنقدية. وحين يصل إلى هذه اللحظة سيكون أكثرَ جهلاً من الناس "المثقفين" في وقتنا الحاضر؛ لأنه سيكون قد نسي الكثير، وسيفقد كل رغبة في إلقاء نظرة على ما يريد هؤلاء الناس المثقفون معرفته قبل كل شيء. وما يميز هذا الشباب -إذا ما نظرنا إليهم بالضبط من وجهة نظر هؤلاء المثقفين- هو تمردهم ولامبالاتهم وتحفظهم إزاء العديد من الأشياء الشهيرة، بل حتى على بعض الأشياء الخيِّرة. ولكن مع وصولهم إلى هذه النقطة النهائية من شفائهم سيصبحون رجالاً، وسيتوقفون عن الوجود مثل ركام يشبه الرجال. وهذا في حدِّ ذاته شيء مهم. هذه آمالٌ إذن. ألا يخفق قلبكم بالفرح أنتم يا من تعلقتم بالأمل؟ لكن، كيف يمكننا الوصول إلى هذا الهدف؟ تسألونني. إله دلفي يرمي بكم منذ بداية رحلتكم نحو هذا الهدف، ولسان حاله يقول: "اعرف نفسك بنفسك". إنها جملة صعبة؛ ذلك أن هذا الإله "لا يُخفي ولا يُعلن شيئًا، بل يدل على الطريق فقط"، كما قال هيراقليطس. إلى أين يقودكم إذن؟ كانت هناك قرون واجه فيها اليونان الأخطارَ نفسها التي نواجهها، خطر أن يتم غزوهم مما ينتمي إلى الخارج والماضي، خطر الموت بسبب "التاريخ"، لم يعيشوا ألبتة في عفة متعجرفة، ثقافتهم كانت -عكس ذلك ولوقت طويل- فوضى من الأشكال والتصورات الغريبة، سامية، وبابلية، وآسيوية، ومصرية، ودينهم حرب حقيقية بين آلهة كل الشرق، تمامًا كما أن "الثقافة الألمانية" اليوم ودينها فوضى متحركة في صراع أبدي لكل الخارج وكل الماضي، ولكن مع ذلك لم تتحول الثقافة اليونانية إلى ركام، وذلك بفضل ذلك الشعار الأبوليني. لقد تعلّم اليونان شيئًا فشيئًا تنظيم الفوضى، وهم يتذكرون في توافق مع المذهب الدلفي أنفسهم -أي حاجاتهم الحقيقية- ضاربين صفحًا عن الحاجات الظاهرية. هكذا

سيمتلكون أنفسهم، ولن يظلوا مجرد ورثة ومقلدين للشرق، وسيصبحون بعد صراع صعب مع أنفسهم وعبر التأويل العملي لتلك المقولة الدلفية الورثةَ السعداءَ لهذا الكنز، وقد عرفوا كيف يُنمونه ويُغنونه؛ ليصبحوا بذلك نموذجًا يحتذى لكل الشعوب المتحضرة التي ستأتي من بعدهم. ذلك مثل لكل واحد منّا؛ إذ يتوجب علينا فردًا فردًا تنظيم الفوضى التي في داخلنا عبر عودة إلى الذات من أجل تذكر حاجاتنا الحقيقية، وسيقف وفاؤنا وطبعنا الجدّي والحقيقي على النقيض مما نكتفي بتكراره وإعادة حفظه وتقليده. سنتعلم حينها أن نفهم أن الثقافة لربما أكثر من مجرد زينة للحياة، والتي لن تكون في العمق سوى تصنّع وحجاب؛ ذلك أن كل زينةٍ تُخفي من تزيّنُه. وهكذا سيتكشف أمام أعيننا التصور اليوناني عن الثقافة في مقابل الثقافة الرومانية، تصور الثقافة مثل طبيعة جديدة، مُطورة، بلا داخل ولا خارج، ودون تصنع وعرف، الثقافة مثل انسجام بين الحياة والفكر، الظاهر والإرادة. هكذا سنتعلم عبر تجربتنا الخاصة ما الذي كانت عليه القوة الأخلاقية السامية لليونان، التي سمحت لهم بهزيمة كل الثقافات الأخرى، ولنتعلم بأن كل زيادة في الصدق يتوجب أن تخدم وتُعد العُدة للحضارة الحقيقية، حتى وإن كان هذا الصدق سيُضر بشكل جدي بالثقافة التي تحظى بتقدير الجمهور، وحتى إن كان ذلك يعني القضاء على ثقافة ليست أكثر من زينة.

منتدى العلاقات العربية والدولية

محاسن التاريخ ومساوئه

يمثّل هذا الكتاب أنموذجًا للمغامرات الفكرية الأولى لفيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة نيتشه، الذي ملأ الدنيا وشغل الناس في عمره الفكري القصير قبل أن يفقد وعيه؛ فقد أشعل حرائق فكرية في أكثر من مجال، وهو يمثل رؤيته المبكرة إلى التاريخ وأثره في عقول الأجيال التالية. ويظهر في الكتاب أثر كبار الكتّاب والفلاسفة الألمان الذين سبقوه في هذا الميدان أمثال هيجل وبوركهارت وجوته.

هذا النص مساهمة في وعي التاريخ وكشف آثاره السيئة والحسنة في الحاضر، فإن كان الكاتب يرى الأثر السلبي للتاريخ والذاكرة التاريخية، فلعلّه يصنع توازنًا مع الرؤية التي تقدّس التاريخ وتذوب في الماضي.

الناشر

منتدى العلاقات العربية والدولية

هاتف: 44080451 974+ فاكس: 44080470 974+ صندوق بريد: 12231
الموقع الإلكتروني: www.fairforum.org البريد الإلكتروني: info@fairforum.org
العنوان: مبنى رقم 28، المؤسسة العامة للحي الثقافي (كتارا)، الدوحة، قطر

السعر:
18 ريالًا قطريًا - 5 دولارات

ISBN 978-9927-126-63-5
9 789927 126635